سهيل ياسين
محاولة تدوين فاشلة
قصص قصيرة
تقديم : جمال كريم
2023
نجمة
للنشر الإلكتروني

سهيل ياسين

# محاولة تدوين فاشلة

قصص قصيرة

تقديم: جمال كريم

2023

نجمة

للنشر الإلكتروني

كوبنهاغن

shakerhussein@yahoo.com

لوحة الغلاف: جبر علوان

تصميم الغلاف: تيم خليل

# خلاصة سيرة

- سهيل ياسين ..قاص وكاتب
- ولد في بغداد عام 1956 وتوفي فيها عام 2021
- عضو اتحاد الأدباء العراقيين
- عضو نقابة الصحفيين العراقيين
- ساهم في العديد من الكتابات الأدبية والثقافية في مختلف الصحف والمجلات العراقية والعربية، وكتب قصصا وسيناريوهات للأطفال في مجلات عراقية وعربية
- ( خطاب عاثر) قصص قصيرة عن دار الشؤون الثقافية / بغداد 2006
- ( أرنوب والجزرات الثلاث) قصص للأطفال عن دار ثقافة الأطفال / بغداد 2007
- ( بغداد 10 كم شرقا ) قصص قصيرة / عن دار الشؤون الثقافية / بغداد
- ( أرنوبة وثعلوب ) قصة للأطفال / دار أصالة / بيروت 2015
- (قوس قزح ) أحجيات للأطفال / دار ثقافة الأطفال 2011
- ( شكرا يا عم ) قصص للأطفال / عن دار ثقافة الأطفال / بغداد / 2012
- ( وفاء الأصدقاء ) مسرحية للأطفال
- (خطة ناجحة ) قصة للأطفال / دار أصالة / بيروت 2018

# مقدمة

## حياة عاثرة لصاحب "خطاب عاثر"

## جمال كريم

**الحياة هاوية بطعم الفجيعة...**

**من أين المبتدأ أحبتي وصحبي وأترابي وأصدقائي؟ من أين وقد حلّ في الغياب الدائم في القلب، والوجدان، والذاكرة والاستذكار سهيل الزاهد والأممي والانساني، ولا أعني هنا قطعاً الزهد بدلالته الصوفية الدينية، ولا الأممية بدلالتها الأيديولوجية الحزبية، بل سهيل الذي قال حياته الانسانية، ومضى سمحاً وصفيّاً صافياً.**

**من أين المبتدأ وما ظل في النفس والعمر من متسعات الصبر والجلد وطول التحمل ومجاراة النوائب والأحداث، وأهوال الممتحنات. إيه يا سهيل، وإيهٍ يا بلادْ.**

**مثل مراهن يوشك من هاوية الخسارة.**

**وكموجة مضطربة لاحقتها ريح عاصفة عاتية، كانت حياتك يا سهيل، لكنك كما أخبرتني الرؤيات لم تعط للموت شيئاً. نعم. لم تعطه شيئاً. لأنك في كل حياتك لم تكن راعياً للأوهام، مثلما لم تكن خطاك في يوم مع خطى قطيع السلطان. هل لي أن أندهك الليلة أو أي ليلة تشاء؟ أندهك كي لا تتلاشى صورة وجهك وضحكتك المجلجلة تعبيراً عن اللاجدوى. لم يخبُ ضوؤك في أرشيف خزانتي، وقد سلسلت حياتك مرحلة مرحلة. أعرف أن لك صبر النخلة وحلاوة تمر عذوقها، وجزع الجواد. كثيراً ما كنت تغتاظ حين لم تجد صحبك وأترابك فينعصر**

قلبك الرؤوم مثل ليمونة صفراء. سهيل منذ طفولة براءتك البريئة لم تكن تقياً منذ محفى قدميك، و"بازة" دشداشتك المقلمة، ولكَمْ كنت فخوراً بحياتك. لا تنسَ أنني مدرك كل ذلك.

سهيلُ وأنا أعبر حدود مهجري أو منساي بخطى واهية الى البلاد الواهية في غيابك العاصف، سأراك أينما أخطو، ساراك مثلي تخطو لتمرَّ على ذاكرة كل الأيام والأحداث والأمكنة، أراك تخطو فوق طين أزقة الثورة الواحلة، وأراك تخطو فوق أروقة كليات الآداب، وباب المعظم، وساحة الميدان، وشارع الرشيد، وحتى مقهى حسن عجمي، وشارع النهر المائج بالنساء، حتى ملاذ الغروب بشريف وحداد، وكل ملاذات بغداد التي آوتنا أيام المحن والنكبات والحملات. ولطالما أنا على صلة بالحياة سأكون على صلة بكل حياتك العابرة أيها الصبور العاثر.

سهيلُ لم تسعفني الأمنية كي أضعَ في يدك خارطة طريق لملتقانا، وأيضاً رسالة إلى الله في علاه حين تلتقيه في أول زيارة ولقاء.

ليس كل هذا ما تبقى يا صاحبي، يا أيها العاثر والصابر، والزاهد والحاكي، ليس ما تبقى كل هذا، يا أيها الشاهد والرائي والصافي، الـ(عثر) بحياتك الموت اللئيم على حين غفلة ووباء وغدر، ومحن بلاد. ليس هذا كل ما تبقى...غير أنَّ نهر الحياة جارٍ، وما كان لن يكون..

بيانات أولية لـ"عاثر" البرج المجهول

إنِّي من مواليد برج مجهول، لا أعرف على وجه الدقة والتحديد، أيَّ لحظة بكيت أو أطلقت صرختي الأولى في وجه العالم، هابطاً إلى هاوية الحياة، مبتلعاً الطعم لأعي الفجيعة لاحقاً، على الرغم من وجود أرقام تشير إلى تولدي المثبت رسمياً في هويتي الخاصة، شأني، مثل أي عراقي من الملايين الذين لم يعثر على تاريخ وجودهم الحقيقي، فبقي ضائعاً ومتروكاً لتقديرات كتبة وموظفي دائرة النفوس، دفتر أحوالي الشخصية، بحسب احصائيات العام 1957، مليء ببيانات أولي، شبه فارغة وحقول لاحقة خالية تماماً، بعد أن ينفتح غلافه المائل للصفرة على صورة طفل شاحب ومرتبك من ضوء الكاميرا، أو يبدو مغتماً بعض

الشيء، وكمن يتهيأ لملاقاة شيء يخشاه، ضئيلاً، مقروراً، يتدثر بثوب فضفاض من النسيج القطني المقلم، مخلوق شقي من سكان سدة بغداد الشرقية.

نعم يا ذا المواليد المجهولة، والموت المجهول. ما كان لن يكون، لكن برغم ذلك فإنَّ قراءة واعية ومتصلة باليومي والحياتي، المألوف أو حتى الغرائبي واللا منسجم في مجموعة "خطاب عاثر" السردية للكاتب الراحل سهيل ياسين، "دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد – 2006"، تفضي بالمتلقي إلى مبتنيات سردية محتفية بالواقع المعيش لمخلوقات قصصه، حيث يتماهى السارد بمهارته التقنية السردية والوصفية مع أحداث الواقع وعلى مساحة إشكالياته وصراعاته ومعطياته. مدونات ياسين السردية بعامة غالباً ما تحتفي بالسرية والالتباس، تارة، وبالإيحائية والجلائية تارة أخرى، ينتقي ياسين، أجنة قصصه وحكاياته المنبثقة من اللا مكان، لكن دائماً، ثمة واقع ورؤى متعددة له، وثمة أيضاً، وعي خلاق، يهندس سردية الأفعال والأحداث مقابل وصفية تقدم الشخوص والأمكنة والأشياء. "ربما لأن الأشياء يمكن أن توجد بلا حركة، لكن الحركة لا توجد بلا أشياء". إذاً، ثمة وعي، يعمر ويحكم ويشتغل على أخيلة إبداعية، وضمن هذا الإطار التكنيكي، يعتمد القص عند الكاتب السارد على المحفز والمدهش، بل العجائبي، السحري، المستفز، الذي هو الواقع أولاً وأخيراً.

فقصة "ليلة البدوي" تبدأ بمفتتح فعلي، حركي، هو: "ارتبكت دورة المقامرين في نزل الأرملة (عبلة)، التي كانت تؤويهم ساعة الظهيرة" ص5. وتنتهي، أيضاً، بالفعل والحركة، نفسيهما، "صلى ركعتين وأخرج من تحت عباءته حدوات الجواد الأربع ووضعها عند أعمدة بوابة المدينة المشرعة" ص15، فالنزل/ المكان، يفضي بنا إلى محور المفتتح، الذي هو التصارع، ويتبدى ذلك، عبر لغة تصويرية وصفية، والذي بدوره يضفي على المكان – نزل الأرملة + البساتين + الأزقة + مسجد الحاج (فندي) صفة إنسانية، هي التجمع ولأسباب موضوعية، مختلفة. وهكذا، فنحن منذ البداية، لسنا تجاه فضاءات مكانية، فحسب، بل نحن تجاه عوالم تتضاد هنا، وتشتبك هناك في مؤطرات أمكنتها المتصلة بأزمنتها الخاصة: "يجيئون بهيئات وأشكال مختلفة، عجائز، مسنين، شحاذين، عميان، ضالين سبيلهم،

يستطلعون خبايا البيوت نهاراً، سرعان ما يخطفون تحت ستر الليل، كل ما تقع عليه أيديهم الشبحية، لذا فلا غرابة أن تخشى المدينة برمتها هذه الأيام إيواء رجل واحد من العابرين الغرباء ليلاً ولو ظل حتى الصباح في العراء" ص7.

لو افترضنا تقسيم هذه القصة، مقاطعياً، فإن المقبوس المشار إليه سيحتل التسلسل الثالث من الخمسة عشر مقطعاً التي تضمنتها القصة، لكنه مقطع محوري، يقوم منطوقه السردي على اختزال الشخصيات في حيزها المكاني / المدينة، ومن ثم الإشارة إلى شخص تخشاه المدينة ذاتها، لنكتشف أنه "البدوي" الذي ينتمي إلى حيز مكاني آخر هو البادية أو الصحراء، إذن، ثمة تناقض جلي وواضح بين شخصيات المدينة وبين شخصية واحدة وافدة إلى ليلها هي شخصية البدوي.. ولا تفاصيل لأبعاد الحيز الصحراوي. في حين تتعدد وتتنوع أشكال ومجالات الحيز المديني، وكذلك يتنوع فضاؤه الزمني، بين ماض تتناقله مرويات شفاهية، تخلع على المدينة توصيفاً واقعياً مؤرخناً لأحداثها وبين حاضر ليس أقل احتداماً وصراعاً من ذلك الماضي وبالتالي فإن هذا التوصيف يوحي بالجو العام، وهو ليس ذا صفة تزويقية، بل هو تمهيد أراد له الراوي أن يكون بهذه العمومية الرابطة بين زمنين وأحداث لا تنقطع مجرياتها على المكان والأشياء والبشر. "من مرويات المدينة غير المدونة، قيل ذات يوم، قبل انتصاف القرن، أصبح كل شيء مختلفاً وسط الميدان العمومي، التماثيل والنحوت التذكارية فقدت ملامحها تفقأت عيون جنرالات الإنكليز المجهولين، مفرغة عن بريق حجرها الثمين، سقط البلاط الرخامي وسور الخشب المحاط بها وأشيع سراً، أن بعض الأهالي قاموا بالسطو عليها ليلاً. فأحيلت إلى هياكل مضحكة، نهاراً اتخذت المسروقات بعدئذ بلاطات منقوشة بزخارف إسلامية".ص80.

وفي تصور أن المدينة هي الفضاء الرئيس للشخصيات، سنجد الكاتب، يشكله على وفق أبعاد الشخصيات الرؤيوية لطبيعة وجودها الموضوعي، ولعل عودة إلى المقطع الأول من القصة، ستكشف لنا الخطوط الرئيسة للمدينة التي تضم المقامرين والأرملة عبلة والفتية

الصغار والأزقة.. الخ، وفي هذا المقطع يطل علينا السارد، مباشرة ليتحدث عن الأم والكلاب الراكضة وراء مصدر الضجة التي عصفت بالمدينة. ثم يقدم لنا نبذة عن أبيه على لسانه هو، ليبلغنا مرة واحدة بتحريض مونولوجي بأن أباه قال: "إن بلدة كانت أرضها يوماً للغزاة واللصوص، الاحتياط فيها واجب" ص9، ويعود السارد بعد أن ذكر أن وراء الضجة في الأزقة هو "سالم السماك"، ليؤكد أنه، مجنون وكذاب وثرثار ودجال عبر كلمات الإثارة الساخرة، هنا تبدو قوة الصورة الرمزية لهذه الشخصية والتي ستمنح الرمزية نفسها لشخصية البدوي في نهاية القصة، لدينا في هذا القص السردي، شخصيات عدة ( الأرملة + المقامرون، الأم – الصبية الصغار + سالم السماك" "الأب + البدوي وهما شخصيتان، يستعيد الراوي الأولى والتي بدورها تستعيد الثانية" تتحرك المجموعة الأولى على مستوى القص. فيما تتحرك المجموعة الثانية على مستوى زمنية الحدث، أعني بها، الأب + الأم + البدوي، ولو دققنا بعمق في هذا النص، سنجد أن الذي يعمق الصورة الرمزية ويجعلها ملتبسة، بل قابلة لتأويلات عدة أو حمالة أوجه، كما يقال، هو الراوي، فالجواد تفترسه كلاب المدينة، فيما يخرج البدوي من تحت عباءته حدوات الجواد ليضعها عند أعمدة بوابة المدينة وربما يمضي!!

وسنجد أنفسنا في قصة "الفراقات الأخيرة" ، منذ البداية أمام وصفية مكثفة، تشي بالكثير من الرموز والمفهومات الإنسانية، وهي وصفية، احتفت بالمكان والشخوص وتداخل الأجيال والرؤى والتصورات في الحيز المكاني/ الحافلة، وهو حيز يتحرك بمحمولاته من المسافرين، إذن، هي حركة للحياة والأشياء وسط حركة الطبيعة المنظور إليها تتخللها، مفترقات مكانية ولقاءات غير مرتقبة، تنفجر بفعلها، تداعيات، هي الأخرى، انضغطت بفعل الزمن والأحداث والتباعد، يتقاسم محورية القصة، الصبي وطائره العجيب. ويقابلهما الأم/ صاحبة السقيفة وابنها، الغائب، وسيشكل الغياب السمة المشتركة بين هذه الرموز المتلازمة والمفترقة في آن معاً. فالطائر سيغيب، مثلما غاب الابن عن أمه، لكن ثمة مفارقة بين الغيابين، "كان الصبي، ممسكاً بطرف خيط، ينتهي بأرجل أبرية لطائر غريب، ملأ فراغ الحافلة بضجيج

متعال، علق أحد الركاب بعد أن خلع نظارته الطبية: إن مثل هذه الطيور، شأنها عجيب، سرعان ما تفر.. إنها تهرب دائماً.. من الصعوبة تدجينها" ص74. وهكذا، فنحن أمام سيطرة الصورة الرمزية لهذا المخلوق. فهو طائر ممسوك ويرفض التدجين حتى الموت، بكل تأكيد، بحثاً عن حريته المستلبة.. ولكي يتوافق الترميز إلى الغياب والحرية على حد سواء، بين الرموز والشخصيات المحورية، يلجأ السارد إلى منطوق الحوار بين الأم وهي تخاطب الصبي من جهة والراوي من جهة أخرى.

"قالت صاحبة السقيفة:

- خذ بقايا الخبز يا صغيري، والقم بها طائرك العجيب، عله يصمت، إنه كأي غريب، يغيب عن أهله، أجل إنه ينوح عليهم، كبكائي المر على غائبي مذ غادرني في تلك الليلة الثلجية البغيضة..
- قلت: ما الذي تصنعينه لو يعود لاحقاً؟
- آه.. لو عاد حقاً، سأملأ الأرض التي لن تسعني زغاريد وأغاني" ص16.

وتستمر الرحلة، ماضية في طريقها، عبر القرى المبعثرة الفقيرة، فيما تتشتت أفكار المسافرين الناعسين، لكن أبرز تلك اللحظات، عندما أطلق الأب الطائر إلى الخارج. إلى فضاء حريته. "الطائر ما زال يزعق، يفرد جناحيه بقوة ينفلت من بين يدي الصبي، يسقط في أحضان أبيه، بامتعاض يتململ الأب، يزيح زجاج النافذة جانباً ويلقي بالطائر خارجاً، يلاحقه الصبي بنظرات كسيرة" ص77، وهكذا حلق الطائر الذي لم يبق منه في الحيز المنطلق، سوى ريشة تدور فوق رؤوس النيام من المسافرين، وبضع حسرات مؤلمة تنطلق من فم الصبي الصغير.

أما قصة "ذاكرة النار" فهي ذاكرة نار الحرب بامتياز، قصة، يبدأها الراوي بالوصف مباشرة، معتمداً في ذلك على ضمير الـ(نحن)، والمكان، هو جبهة قتال، وينتقل من وصف الأنا/ الآخر، إلى وصف المكان، الذي تدور في فضائه رحى الحرب التي تتقد نارها بالجنود

المساقين إلى ماكنتها قسراً. "نحن المستنفرين، هنا، نتحسس آلاتنا الحربية، اعتدة بنادقنا، أقراص أسمائنا، ضمادات الميدان، مخبئين التماعات حرابنا، بصيص سكائرنا، وأنين أغانينا تحت اشتداد القصف والبرد والظلام" ص74، وهنا، يتناوب السارد مع صوت الراوي، بالكشف عن سوداوية المكان ووحشيته، بل قتامة الحياة وانعدامها في حيزه. إذ ثمة بشر مرميون، هكذا، وهم يحملون شاهدات موتهم المدلاة من على صدورهم الواجفة، في المقطع يتغير منطوق الوصف من ضمير الـ(نحن)، إلى ضمير الـ(هو)، الغائب، ثم ليلتقي، مرة أخرى، صوت الراوي مع الـ(هو)، الغائب في حوارية، استذكارية تنتهي بإخبارية موت الجد الذي كان بالإمكان أن يكشف للآخرين عما تأخر من حياتهم وما تقدم!!. ثم تبدأ رشقات الرصاص مدوية في المكان، ولا شيء غير صديات رجعها القريبة، كان الهجوم قد بدأ، جالباً معه الموت الزؤام. "في الأفق الداكن بفعل الغبار، تلاشت العربة المحملة بالقتلى، لم نهتد لأحد منهم، رغم كثرة الدلائل المختلفة، بعد أن دار بنا العريف المأمور حولهم إلى صندوق عتاد قديم وقال: "تلك هي أشياؤهم الخاصة". كانت خطابات ودية، ورسائل حب، بطاقات صور ضاحكة، اختلطت مع رسوم قديسين متورعين.." ص82-83.

إذاً، يذهب كل أولئك الأحياء من الأحبة والأصدقاء، تثرم أجسادهم ماكنة النار، وتشظي أحلامهم رصاصاتها، ولم يبق، منهم، سوى أشيائهم، وثمة أشباحهم تلاحق من بقي حياً في المكان. بقي أن نقول، إن كل شخصيات "خطاب عاثر"، تنسل من بيئة اجتماعية، مغمورة بالفقر والتمزق والصراعات، ولها مشاعر وتصورات إنسانية، تجاه الحياة، وتجدها في كل قصص المجموعة تتحدث بلغة عامرة بالسردية الواقعية للمعيش المنظور والوصفية اللاذعة لمشهد المكان وخلفياته الاستثنائية والمعقدة. باختصار، هي كيانات اجتماعية مأخوذة بالحياة والبراءة، غير أن الحرمان والاغتراب والفقر والحروب، كل ذلك يمنعها من التواصل بقوة، ثم لتبقى تتطلع إلى يوتوبياها المستحيلة، ولو استثنينا قصة "وجه السيد" الذي يرسم ملامحه، رسام بارع، في بضع دقائق، دون الحاجة إلى استذكار أو تأمل خطوط وجه، السيد/ الطاغية، إذ يعيد تشكيله في كل مناسبة ميلاد في مشغل إجباري، يعده رجال السيد ذي

**الوجه الممسوخ، كما يراه الرسام فحسب، أقول عدا هذه القصة، فإن قصص، عاشق الطيور، مملكة الطرائد، خطاب عاثر، العشاء السري، ترميمات ممكنة، الحصن العتيق، مخبأ في الأعالي، ظلال أخرى، حيوات مؤجلة، ذو القبعة اللبادية، أشياء صعبة الافتراض، الكواكب الزرق البعيدة، لا تخرج عن الإطار العام الذي أشرنا إليه في قراءتي للقصص الأخرى.**

# خلاصة سيرة

# سين...

# بيانات أولية

**أنا من مواليد برج مجهول، لا أعرف على وجه الدقة والتحدي، أي لحظة بكيت أو أطلقت صرختي الأولى في وجه العالم، هابطاً إلى هاوية الحياة، مبتلعاً الطعم لأعي الفجيعة لاحقاً، على الرغم من وجود أرقام تشير إلى تولدي المثبت رسمياً في هويتي الخاصة، شأني، مثل أي عراقي من الملايين الذين لم يعثر على تاريخ وجودهم الحقيقي، فبقي ضائعاً ومتروكاً لتقديرات كتبة وموظفي دائرة النفوس. دفتر أحوالي الشخصية، بحسب احصائيات العام 1957، مليء ببيانات أولية، شبه فارغة، وحقول لاحقة خالية تماماً، بعد أن ينفتح غلافه المائل للصفرة على صورة طفل شاحب ومرتبك من ضوء الكاميرا، أو يبدو مغتماً بعض الشيء، وكمن يتهيأ لملاقاة شيء يخشاه، ضئيلاً، مقروراً، يتدثر بثوب فضفاض من النسيج القطني المقلم. مخلوق شقي من سكان سدة بغداد الشرقية.**

**لعل الشيء الوحيد المطابق لاسمي، هو أني كنت فعلا، كائناً سلسا، سهل الانقياد، عندما أخذت أول مرة بيدي القابلة غير المأذونة رسمياً ولا المرخصة من دائرة الصحة، الحاجة ( أم فاطمة )، لم أمانع في الإعلان عن وجودي المبكر ولا التباطؤ بالإسراع في مولدي، وأنا أرى النور أولا من دون مخاض يذكر للأم الفرحة.**

**إذا كان سهيل شعاعاً من ألمع النجوم، فقد أفلت قبل أواني، عشت منطفئاً، منزوياً في قلب الظلال، وأنه لصحيح عند طلوع هذا النجم القطبي الجنوبي يرفع كيل، ويوضع كيل وتتبدل الأحوال. بعد عامين من حدوث أخطر فيضان أغرق بغداد 1954 كنت قد أبصرت الدنيا لأغدو شاهداً فيما بعد، غير مرخص بالكلام في زمن الصمت، ولن أبدي أدنى حديث**

**أو تعليق على أحداث معيشة، في عقد شهد فيضانات، وحرائق، ومجاعات، وحروباً، وأوبئة، وانتفاضات شعبية، وأخرى تالية لمؤامرات فاشلة وانقلابات عسكر وثورات مجهضة.**

## هاء...
## معانٍ مضادة

**كذب اللغويون والمعجميون، وإن أصابوا، على أني المرادف للرجل المطواع، واللين المتسامح، أو الأرض الممتدة المستوية، لأنه ليس بمقدوري إلا أن أكون راديكالياً، صعب المراس، لا أقوى على التطامن، ولست طريقا سالك، وممهدة لأضدادي، لذا كان قدري أن أشقى أبداً، وأكتشف نفسي في آخر الحشد دائما.**

**أخالف كتب الفلكيين وأوصاف قراطيس المنجمين وسجلات الأسفار، على أني قرين أسطع النجوم بعد الشعرى أوسيروس المقدس، بهي الطلوع، اسطرلاب سفن الصحراء، ليشتقوا ما شاءوا من اسمي، معاني ودلالات، ويجترحوا ما استطاعوا من إضافات شتى، ومهما رفع كيل ووضع كيل، لم يتغير من الأمر شيئاً، قيد شعرة، ما دام الاسم منسوباً ولصيقاً برجل بسيط، لا يجيد سيناريوهات التلميع حسب الطلب أو قواعد فن اللعبة.**

**في طفولتي المبكرة عند كل موسم يطلع النجم سهيل وينقضي الحر ويذهب القيظ وتنضج الثمار والفواكه، يانعة في الأشجار والأسواق، دانية التناول. غير أني لم أذق منها شيئاً في الطفولة سوى الفج الرخيص والمتغضن الزهيد، وفي سنة ميلادي دخل الباص الأحمر الانكليزي ذو الطابقين شوارع بغداد، لكني لم أستقل تلك الحافلات، ولم اقتعد كراسيها الجلدية الوثيرة ولا حتى الخشبية القلقة، إلا بعد مضي عقد من الزمن بكامله، يوم أبصرت الضوء، وضع الاستشاري البريطاني التصميم الأساسي للعاصمة، ولم يكن في خرائطه ولا في حساباته اللاحقة موضعاً لمدينتي العشوائية، ولا أي وجود يذكر. كانت خارج ما خطت يداه،**

نقطة هامشية، هشة، صنعتها نكبة الفيضان الأكبر. منطقة "الوشّاش"، مأوى المنكوبين والهاربين من طوفان دجلة.

## ياء....
## حكمة لا تنفع

لو استبشرتم خيراً بمواليد جدد، بأي الأوصاف والنعوت أدعوهم؟ اختاروا لأبنائكم وأحفادكم أنى أردتم، من معنى أو إشارة تخطر في بالكم، محمودة، مرغوبة، جالبة للخير والعطاء. أو غير مرحب بها ضد الشؤم والشر، نادوهم بما شئتم، سواء أجاءوا في ساعة سعد أو علامة نحس، فليس كل ما نأمله ونتوقعه من وراء لعبة الأسماء ومحمولاتها سهل المنال، وممكن التحقق. واذا كان الأمر كذلك، فتلك معادلة غير قابلة للتصديق، أو حكمة بالية لا تقبل أقل الاحتمالات. فات الأهل المبتهجون فرحا بمقدمي أن يدركوها مسبقا، ويعرفوا تمام اليقين، أو على نحو ما، أن هكذا أشياء وأمانٍ ليست يسيرة على الفتى البكر، ولن تنفعه في القادم من أيامه أو في عصره الحالي السعيد.

### لام...
## مرشد ضال

أيقنت أن سهيلاً ضوء ساطع، يستهدي به الناس إلى وجهاتهم، وتسترشد به القوافل السيّارة والتائهون في المد الصحراوي ليلاً، لكني لا أصدق أو أذكر يوماً بالمرة، أن اهتدى أحد بحكمتي، أو استرشد بي وتبع خطاي، إلا الضالعون في ورطة الوجود، والضائعون من أمثالي في تيه أضواء المدينة الساطعة، من أبناء الثكالى والخائبات على الدوام. أولئك الذين قضوا جل حيواتهم في مشاريع وأفكار أفضت ببعضهم إلى مجاهيل ومصائر غامضة،

ونهايات مفجعة. وبعضهم من بقي على قيد الحياة، ليصبح أنموذجاً مثاليا للاحقين من أجل تجنب الكارثة والمضيعة للوقت والتهلك، في زمن احتداد الجلاد والمقصلة ...

## محاولة تدوين فاشلة

احتشدت بيوتها الخفيضة بعضها مع بعض، مثلمة الشرفات والأرصفة، محطمة الأفاريز والأسيجة. لم تطأ شوارعها الكالحة الرثة، كعوب الأحذية الملمعة الأنيقة مرة قط، ولم تطلها يد المقاول المراوغة ومكائد تجار العمارات والأبنية، ما مرت بها فرق الانقاذ والاغاثة الدولية، ولم تشر إليها التقارير الدورية والسنوية الصادرة عن المنظمات الانسانية. أرض ما لبثت منكوبة في دورة الزمان، خارجة من فيضانات، ومجاعات وحروب طاحنة، وكوارث سرية وعلنية، كان آخرها جائحة غامضة، عصفت بها، على حين غفلة .. مدينتي المنقلبة عن أوضاع شتى، تآكلت مع الأيام وتقادم السنين. عدت إليها أخيراً، وجلاً، حاملاً دفاتري في محاولة تدوين ما يمكن تدوينه، أو في الحقيقة جئت أبحث عن رجل يشبهني بالتمام والكمال، فارقني في ظروف غامضة، منذ قرابة خمسين عاماً . طفت شوارع عديدة، تجولت في أزقة بعد منعطفات كثيرة، فوق مستوى النظر، تبدو واجهات المدينة أكثر هيبة وفخامة وهي غارقة في وهم الشعارات، تعلن عن سطوتها في يافطات ثورية وخطابات بطولي، وما شابه ذلك، وإشارات تحد وعلامات نصر، وإشادات بالبطل المقاوم وطرد المحتل، تعلوها رايات كثر، مطرزة بأهلة لامعة ونجوم من شعاع.

وعند مستوى النظر، يحفل المشهد بكتابات وأدعية سماوية وصلوات، خطت على الجدران المتهرئة ورسوم قديسين وملائكة وقادة ملهمين، وتباشير بفراديس موعودة.

فيما كانت البلدة تحت مستوى النظر، تعج بمخلفات هندسة الخراب وفوضى الاهمال، بين تآكل البيوت والطرقات الرثة والساحات الموحلة وعري الشوارع والأطفال.

اهتديت عن طريق أدلاء خائفين، مترددين إلى أعتى حاك من رواة المدينة، أخذ بيدي إلى دكان بيع الأقراص المدمجة والألعاب الإلكترونية، قال من دون مقدمات:

لاحظ .. يا هذا الانثروبولوجي القلق .. تاريخ هذا المحل يكاد يكون صورة مصغرة لسيرة المدينة بكاملها .. تعاقب عليه كثيرون، بائع الحلوى، مؤجر الدراجات، الإسكافي، الضلاع، الموسيقي، الخياط، الخطاط، الكتبي، بائع الطيور، الشرطي اللوطي، وسواهم .... اصغ أيها الغريب، أقسى الحكايات وأشدها مضاضة، تلك التي ليس بمقدورك أن ترويها علنا أو تفضي بها سراً، ولا خيار لك فيها إلا تناوب الأدوار بمشقة، بين حاك يروي التفاصيل ومتلق يكتوي بسماع ما لا يطاق.

لكن الأشقى والأكثر لوعة، هو ليس من السهولة أن تجرؤ على القول بما هو معلن أحيانا .. وعندئذ يكون الكلام أكثر أنواع التورط فداحة ..على أية حال، لم يعش ويعمر طويلاً هنا من المستأجرين، سوى اثنين، الطبال والزمار. أما أول بقال اتخذ المكان، فحكي أنه شيخ من منكوبي الصرائف، أيام فيضانات بغداد، كان يبيع الحلوى والمعجنات، لبث أياما لا تحصى، وبرغم التحول الخطير الذي طرأ على مبيعاته، يوم غدا معظمها من التمر ومشتقاته، في أعوام الفاقة وسنيّ الحصارات، فقد ظل يدعو المشترين والأطفال، منادياً بمرارة ساخرة على بضاعته: تعالوا، تذوقوا ..لدي ما لذ وطاب، كل شيء معمول من التمر وعسله..كلوا حتى تشبعوا، ما جاع بيت فيه نخلة. ما ضاعت مدينة يقضم صغارها وكبارها عضو الملك، سرة الخاتون، لقمة القاضي، وأصابع العروس المصنوعة من حلوى التمر، وبمرور الزمن، أخذ يعرض كل شيء ولا يبيع أي شيء، تحول كل ما في دكانه إلى حاجات لا يقتنيها أحد، محفوظة في أوعية مغبرة وعلب صدئة في أعالي الرفوف المغطاة ببيوت العناكب والأتربة. ما غادر الشيخ مكانه قط، إلا بعد أن غيّبه الموت ببطء، تاركاً بضاعته الكاسدة والمخبوءة، التي كشفت أخيراً، لتسفر عن أشياء عديمة النفع. مكبات خيوط بائدة، حلوى فاسدة، أدوات محطمة، مقتنيات عاطلة، تكوينات صدئة، علب فارغة، حاجات لا تستحق الذكر والمساومة.

قاطعت الراوي بسؤال عما إذا كان يتابع الصحف باهتمام، حين رأيته يلتقط بقايا جريدة ملقاة على الطريق، ردّ بلوعة، وهو يحدق ويقرأ هازئاً: شقق فارهة للمواطنين مجانا،

إجراءات حكومية لاحتياجات ذوي الدخل المحدود، الشروع بمترو الأنفاق الكبير وإقامة الأحزمة الخضر حول المدن، اطلاق القروض الميسرة من دون فوائد، مشاريع خيرية للمعوزين، مجمعات سكنية استثمارية، خطط استراتيجية للصحة العامة، خطوط ساخنة للشكاوى ومباشرة للاتصال بالمسؤولين الذين سيتولون الحلول شخصياً. علّق قائلا: هكذا عناوين والعشرات من أشباهها، تطالعني كل صباح، في الكثير من كلام الصحف، المنتشرة في كل زاوية ومكان، في قلب المدينة وأطرافها، عند النواصي، وتقاطعات الطرق، يحملونها فتية وشيوخ حفاة، عراة، لا يفقهون حروفها، بين مصدقين بالكاد أنباءها أمام المشترين علنا، ومكذبين حقيقة ما قد تكنه سراً، يستظلون بها من حرارة الشمس حينا، وآخر يهرعون بها خلف السيارات الفارهة ويعرضونها على المارة الذين يشيحون بوجوههم عن بريقها الساطع، أو يكتفون بنظرة عابرة، سريعة مثل خطواتهم الشبحية. وهم منهمكون في انشغالاتهم الروتينية الباهظة. صمت قليلا ثم استأنف حديثه بمرارة: العناوين ذات العناوين، لا تحمل هذه الصحف المكررة سواها، وليس هناك ما يدعو للالتفات أو مضيعة للوقت، في عصر بات الزمن فيه بلا ثمن. فلم أعد أعبأ بقراءتها ومتابعة تفاصيلها، ولن أكترث بعد اليوم لأدنى قدر من خطوطها العريضة، وبرغم الكم الهائل منها وكثرة ألوانها الأنيقة وأشكالها المختلفة، وجهلي الأكيد بأعدادها على وجه الدقة واليقين، فأن حضورها لم يعد ضرورياً إلا عندما أشعر بالجوع ويحين وقت الطعام، فيمسي عندئذ الجديد والقديم منها، ليس أكثر من سفرة ممدودة تحت زادي الفقير. أبسمل على طعامي وآكل حد الشبع أو دونه وأحمد الله الذي سخر لنا أولئك الذين يحسنون الكلام ويزدادون ضجيجاً على الدوام، حينما يتعلق الأمر بالمستقبل، في جرائد وصحف لا تصلح في أفضل الأحوال، إلا أن تكون مفارش مثالية، قابلة للطي، وموائد لطعام الفقراء والمساكين.

وقبل أن يواصل الراوي بما تبقى من حكايته المسترسلة، انطلقت على عجل، استطعت أن ألتقط ما قاله، تناهت لي عبارته الأخيرة ..مهلا يا .. ليتبعني ما يحلو لك وللبعض أن يلحقه بي، ما دام للحقيقة لسان لن يبلى.

**انسللت مختفياً في أقرب زقاق، خارجاً عن تفاصيل المدينة، من دون أن يعي أهلها، أو يدرك آخر رواتها، أن الذي حدثني عنه الشيخ البقال، كان هو جدي قبل عقود مضت، أو من لم أستطع أن أكونه لاحقا إلا أسابيع معدودات، حين لذت منزوياً في المحل التجاري الصغير، أرقب الناس والأزقة والأشياء كلها، وهي تذوي بعناية فائقة وسط سكون يزداد عمقاً ورعباً، يوما بعد آخر ...**

## حافة الجهات الأربع

**انبثقوا باعة جوالين، مهرولين، منذ أن أبصروا النور، ينادون على بضائعهم، يعلنونها على الرائحين والغادين، يتكررون طوال سنين على الأرصفة وحافة التقاطعات، مصائر عائمة في مهب التقلبات. جمعتهم حماقة التاريخ والأقدار، حشدا تلو آخر، كل ينوء بأيامه المحتدمة، مثل جثث متعفنة في حروب خاسرة. حشد يروي سيرته الضائعة عند ملتقى التقاطعات وحافة الجهات الأربع ....**

## عارض الصحف

**.. جرايد، جرايد ..آخر الأخبار، نعم آخر الأخبار، حكايتي التي قد تبدو مملة أو مفككة بعض الشيء، أدرك أنني لم أغير في الأمر شيئاً. سأتلو عليكم حديثاً أو كلاماً، مجرد كلام، لكنه لا يشبه كلام الجرايد ولن يهز الكروش ولا يقلق العروش، حتى ولو جئت بكل هذياناتي المبعثرة، لكني وبرغم هذا سأبقى هكذا، أفعل ما ينبغي فعله وأروي ما يمكن روايته، بملء ثقتي، مثل أي مؤمن بعدالة ما يصنعه، ما دمت حنجرة ولسانا.**

المحنة كانت في البدء، قبل قدوم الأمريكان، منذ سنوات القحط والجوع، والملوك والعسكر والحاكم المفدى والمستتر بالله حتى آخر المبشرين باليوتوبيا المؤجلة. ساومت على أشياء كثيرة وبعت آخر ما تبقى من مقتنياتي الأثيرة، وكدت أكون مثل من سقطوا في وحل اللعبة، ككائنات شقية جاهزة لكل الأزمان والأدوار وحسب الطلب، لولا صحوتي الباهظة، وتلك هي النتيجة، أو ثمن الفضيلة في عصر لم يعد يحفل ويبارك المواقف والمبادئ وسواها من معان غدت محلاً للتندر ومثاراً للسخرية. مجرد هراء لا طائل منه. أشبه بما تتناقله الجرايد، مارست مهنا كثيرة، بقالاً وخطاطاً متنقلاً، بائع كتب عند النواصي والمنعطفات. لم أنل من المشترين غير صدودهم عن بضاعتي الكاسدة. من يقرأ الكتب؟ إنها سلعة بائرة، ناديت بأسمائها واحداً واحداً، حتى شحبت. ويوما فيوما أصبحت حرفاً منسياً كعناوينها الممحاة، لائذاً بالأرصفة. طاردني لصوص البلدية والحرس الرسمي، لأني حسبما يدعون، مخلوق غير مرغوب فيه، يعرض أشياء رثة تشوه وجه المدينة الحضاري، أو هي مصدر تلوث بصري مثل أشباهي الباعة بحسب تقارير خبراء الصحة والبيئة الأجلاء.

وبوصفي رجلاً مسلوب الإرادة، ارتديت الكاكي قسراً، دفاعاً عن مجد زائف في عهود بائدة. ضيعت سني شبابي هدراً، جاهلاً حقيقة ما يجري هنا أو هناك في العلن والخفاء ضد أمثالي، مداناً ومريباً على الدوام، لم أحظ برضا وجهاء مدينتي، ولا قبول السادة الكبار في بلدتي المباعة المشتراة. وليس باستطاعتي أن أحيط نفسي بالمظاهر الزائفة، وإن كان لي ثمة علاقات طيبة وغير مشبوهة ولا مثيرة للآخرين والفضول الأمني. فهي صلتي الواضحة برفيقي الوفي على مر العصور الذي لم يخل بوعده في ملاحقتي، أينما حللت، مثل ظلي، ذلك هو الصديق الأوحد، عيشي النكد .... جرايد جرايد ..آخر الأخبار ....

# العلكة وأشياء أخرى

موجعة هي الذكرى، راهنت على حبه أياماً وليالي، أوعدني بأشياء وأشياء وأقسم لي بأنه لن يفرط بوقته من أجل اسعادي. كانت يدي مغلولة في يده، كاشتباك أغصان الشجر والتفاف الخاتم ، ما أرق قيده لحظة أن نذوب بعضنا ببعض. كنت أقول معترضة أحياناً على وجهة نظره بمزاح ودي ( أنت دائما تبدي رأيك وإعجابك من دون أن تنظر أو تتفحص الأشياء أو تلقي نظرة عابرة في الأقل ..). وقتها يرد مبتسماً ( لا أظن كل ما تفعلينه ليس جميلا أبداً ...).

غازلني وبادلني الغرام عاشقا وزوجا لم يفارق لسانه حلو الكلام، يقول دائما وهو يلاعبني الشطرنج( لن أتخلى عنك أبدا، يا سلواي الحبيبة ..). ولما انتهت بضع ليال بعد الشهر الذي تسميه النسوة ببلاهة عسلا، تحولت إلى بيدق أصم، لاحول ولا قوة له، يحركني كيفما شاء وأنى أراد، تبعا لرغباته وأهوائه الغريبة، حتى قال لي في نهاية اللعبة( كش ملك ..).

ألفيت نفسي المحطمة ضائعة، خائفة، جائعة، أتنقل من مكان إلى آخر، ينتابني إحساس مختلف، كلما حللت في موضع ما، ورحت أبحث عن موطئ قدم في مكان آخر. لم أعد أعثر على من أثق به ، طوال أيامي اللاحقة، وها أنا ذا في متاهة التقاطعات، إذ كان لزاما على بائعة مثلي، أن أفعل شيئا ما لإثارة انتباهك. فليس بوسعي غير التلويح ببضاعة رخيصة تحملها امرأة على مشارف الستين، أو متظاهرة، كما يظن، بالعلكة المحلاة بطعم الفواكه، وتعلن في السر أشياء أخرى، أو بائعة هوى على الرصيف، على العابرين الذين لم أحظ باي التفاتة منهم ولا ادنى نظرة من المارة الذين كاد احدهم ان يدعسني بعربته الفخمة ، ذات مرة وصاح بي ( لماذا لا تأخذين بالك ايتها الهرمة ..؟ قلت وانا ابصر فاتنة الى جواره ( كيف لأحد منا أن ينتبه لاحد ..انت غارق في هوى الشباب وانا منهمكة في دوامة عيشي ....

# بائع الزهور

في الحرب كل شيء يمسي بالمقلوب، تزرع حبّاً تحصد شراً، أو العكس بالعكس، ذلك ما حدث على وجه الدقة والتحديد. كان أبي بستانياً، يزرع الأشجار في شوارع أحياء المدينة وحدائقها العامة، لتورق وتزهر ثم تعطي ثمارها يانعة في كل موسم وعام. يغرس شجيرات الورد وشتلات الزهور، كالرازقي والياسمين والبنفسج وأنواع أخرى جميلة ، لتنمو وتحيا زاهية بألوانها المبهجة. في حرب الطوائف كان له موعد مع الموت، لم يكن مع أحد قط، ولا ضد أحد أبداً. كان راعيا للحدائق وصديقا للزهور، أراد أن يغرس وردة أو يسقي نبتة عطشى، مهملة، ما أن مد يده العزلاء والسمحة حتى سقط صريعا جراء عبوة ناسفة، كانت مزروعة في الجوار القريب. وبرغم كل هذا وذاك، ومنذ تلك الفاجعة أصبحت بستانيا وبائعا للزهور، أغرسها وأوزعها على المارة المشترين باقات وباقات، مخلدا ذكرى أبي المنسي، حالما بالدعة والسلام، محبا للجمال على هديه الكريم. ولن أكف عن المناداة بأعلى صوتي في ملتقى التقاطعات( زهور، زهور، زينوا شرفاتكم بالزهور ...زهور، زهور عطروا بيوتكم بالزهور ...

# ملك بثلاثة سيقان

نحيا ونموت في الشوارع، ضائعين على مفترق الطرق، غير أننا نرشد الضالين إلى الجهات الأربع .. أي وجهة تشاء، شرقية أم غربية. وإذا أبيت ألا تختار وجهتك إلا بنفسك، كالمتعاقبين والقابضين على مزولة البلاد، لا شرقية ولا غربية، ولا ولا..، فلك ما اخترت ولنا تقديم الثمن الذي لم نكف عن دفعه باهظا حتى الآن ..لا تسيئوا فهمنا، إذ لا نرغب في الخطابات الملغزة، واضحين كالجهات الأربع المعلنة. كثيرون مروا بنا، قواد

**العربات الفارهة والدبابات المزنجرة، أصحاب الرايات الحمر والبيض، حملة الأعلام الخضر والسود، ومازلنا ندور دورة الأيام والفصول، حاملين بضاعتنا الملونة، نهرع بها هنا وهناك، نلاحق العربات الفارهة :**

**خذها يا سيدي ..مناديل ورقية معطرة ..مناشف صحية .....**

**نظفوا أفواهكم .. امسحوا على مواضعكم الرطبة .....**

**هكذا كنا، أنا وشريكي، ندعو الآخرين بين الجد والهزل.**

**لم نصمت لحظة ونقر في بقعة ما، غير أننا نهدأ بعض الوقت، مبتهجين عند الظهيرة، حين تهبط الحمامات البرية والطيور المعششة في الجوار، دافئة، تلتقط ما تبقى من فتات خبزنا اليومي.**

**كان رفيقي حريصا على أن يطعمها كلها، ينثر حبات الخبز حفنة كبيرة ملء يديه، بعد أن يقضمها ويعيدها قطعة قطعة في كفيه. كنت أبدي استغرابي من طريقته هذه، وأتساءل بفضول، أو في الحقيقة، أقترح عليه أن يلقي بالفتات حبة إثر حبة أو شيئا فشيئا في الأقل، ليتمكن الجميع من نيل حصته. يرتسم على شفتيه ظل ابتسامة ويقول: اصغ لي ..ما تقترحه خلاف ما تعتقده، إنها طريقة جائرة، تشبه على نحو ما شريعة الغاب ..يستحوذ فيها القوي على الضعيف، جربها إن شئت. اكتشفتها أكثر من مرة، وتلك هي الطامة الكبرى التي دفعت بنا إلى هنا ومن هم على شاكلتنا في أمكنة أخرى من العالم، حفاة، جياعا، نتصارع في تنافس محموم لن ينتهي أبدا.**

**كيف لي يا صاح أن أنال رزقي وأنا معاق يجرجر أذياله ولواحقه بعكاز خشبي، مخلوق لا يقوى على اللحاق بكائنات تزداد ضراوة يوما بعد يوم؟ لم أفقد قدمي منذ الولادة ولا في ميدان الحرب، كما يظن، بل ضاعت هنا في هذه الساحة بفعل حادث مروري، يا لطالعي المحظوظ، كم كان كريما للغاية معي، ذلك الذي تسبب بإعاقتي، أو في الواقع من وهبني ساقا ثالثة، وأعطاني على الفور، بما فيه الكفاية من المال. ملايين من الدنانير تعويضا، وجعلني، بين عشية وضحاها رجلا ميسور الحال. وقبل أن يبادرني أحدهم بالسؤال عما أنتظره هنا أو أبغيه على وجه التحديد في ساحة للمتسولين والعاطلين، إذا**

**أصبحت ما أدعيه، هه هه هه. نعم إني أتطلع لحادثة أخرى، أرغب في دعسة جديدة من عربة بآخر طراز حديث، وتعويض نقدي يجعلني مليونيرا كبيرا جدا. أودع بعدئذ ساحة التقاطعات مرة واحدة وإلى الأبد، وأكون بذلك ملكا حقيقيا بثلاثة سيقان .. هه هه هه ...**

## بائع المياه

**بارد بارد، ماء بارد ..اشربوا، تزودوا، ولو قليلا منه، قبل أن يحل الجفاف في بلادكم، أرض الرافدين، لا تبخلوا على أنفسكم، مقابل أرباع دنانير معدودات. ها أنا ذا أسابق أصحاب العربات الفارهة وأتعقب مراكبهم الملمعة، وأصيح، بالغادين والرائحين ملء صوتي على الطريق من أجل أن يشتروا قنينة واحدة على الأكثر. يا لسعادتي الغامرة وأنا أجري هنا وهناك، ليس طلبا للرزق والعيش الكريم والكفاف فقط، بل حفاظا على رشاقتي وروحي الرياضية، متمسكا بمهنتي الأثيرة التي لم أرثها عن أحد.**

**نعم، لم يكن أبي أو جدي الأول ولا حتى السابع سقّاء للماء. بل هي الأقدار ساقتني إلى ساحة التقاطعات بعد أن كنت عاملا ماهراً في مصنع للأغذية لم يعد موجودا كغيره من المعامل المدمرة الاخرى جراء الحرب و الحصار. هلموا اسرعوا، قبل أن ينتهي كل شيء تماما، وتفوتكم الفرصة الكبرى بوطن النهرين في الحصول على المياه المعبأة، والصحية المستوردة، المجلوبة بأحسن المواصفات من خلف الحدود. هلموا اسرعوا، للصافية النقية، خذوا ما يكفي لأيام أخر، لا تستبعدوا ما سيحل عاجلا أم آجلا، نعم . هناك حرب من نوع آخر، حرب محتملة للمياه، هذه المرة، ... بارد بارد، ماء بارد ..**

**000**

**ذات صباح تموزي ساخن، تطايرت أوراق الصحف والمجلات، وتناثرت المناديل الورقية الملونة، وتفجرت مياه نقية من قناني محطمة، وتداعت وتفحمت أشياء كثيرة،**

حين تلطخ أسفلت ساحة التقاطعات بدم باعته. تباينت الأخبار وتضاربت الأنباء، ذكرت وكالة ( .......) أن نحو عشرين شخصا لقوا حتفهم في الساحة الكبرى، أغلبهم من الباعة الجوالين، بينهم صبي يافع يحمل الزهور، وقد قتلوا عن طريق الخطأ على أيدي قوة عسكرية.

وقال شهود عيان، إن أجساد الضحايا تحولت إلى أشلاء بفعل كثافة النيران التي استهدفتهم، فيما ذكر آخرون أن أكثر من عشرين مدنيا سقطوا برصاص ملثمين يستقلون درجات نارية، ولاذوا بالفرار. ونقلت مصادر إخبارية أن مجزرة الميدان العمومي كانت من جراء تراشق نيران كثيفة بين حراس موكب أحد المسؤولين وقوة مجهولة من المليشيا المسلحة.

بعد مضي أيام على الحادثة الغامضة التي سجلت ضد مجهول، انطلق الباعة في الطرقات، ينثرون أصواتهم على المارة في الساحة ذاتها، منادين: علكة بطعم الموز..سكاير أجنبية بنكهات مختلفة ..مياه باردة نقية ..مناديل صحية ..جرايد جرايد ..آخر الأخبار ..

## هامش على الواقعة

سيوف ومدى من أغمدتها سُلت، ورماح مستدقة ثُقفت، وأقواس وسهام وفؤوس مسننة جُهزت، وأعمدة من خشب الزان والخيزران، وصفائح على هيئة خراطيم حديدية وخناجر شُهرت، وحناجر هتفت بالقصاص والموت، في السكاكين والعصي والهراوات، وما يمكن التقاطه من حجارة الطريق، وكل أداة صالحة للقتل، هبت بها جموع من المدينة لملاقاة رجل داع للإصلاح. وقيل إنه لم يبق في بيت أو زاوية، من أشياء قابلة للمنازلة، مميتة، جارحة، إلا وجلبتها كراديسهم الحاشدة. اختلط فيها السياف والرامي والرمّاح، وغيرهم من خلائق العوام، وغوغاء الطرقات والأسواق، مندفعين بوجوه كالحة، متجهمة، غاضبة، منقادين بين رهبة السلطان ورغبة الفوز بصولجانه المطعم بالحجر الثمين. انقضوا على الخصم المنذور

للهدى، سقط مثخنا بالجراح، مات مضرجا بدمائه التي روت الأرض بعد أن سالت على الجهات الأربع، في الأشجار والأنهار، عند الساحات والدروب والشوارع، بين الزوايا والخبايا، حتى تألق في الآفاق ضياءً لن يزول.

مرت على تلك الواقعة أيام، وتلاحقت سنون وقرون، غير أن دمه الطاهر المراق لم يجف أبدا.

**000**

في زمن آخر هرع خلق كثير من سكان المدينة، بآنية من زجاج ومعدن، وقدور نحاسية، وأخرى معمولة من مواد عديدة، قصاع معمقة، صواني متسعة، وصحاف غريبة، سارعوا بها ليغتنموا ما يمكن التزود به واللحاق بما يحشو بطونهم الفارغة، من الوليمة المباركة في ذكرى الرجل الصالح. كانوا يتزاحمون بطسوت كبيرة، وطناجر بلا أغطية، وأغطية بلا طناجر، ومواعين متصدعة، فضلا عن معاجن الطحين، وحاويات النخالة، وفخاريات الماء وأكوازه، مع أنصاف أوان وبقايا علب، وقحاف لأشياء مجهولة، وأوعية مختلفة الأشكال والأحجام. هبوا ملتقطين من زوايا بيوتهم أي شيء ممكن لاحتواء الطعام أو الإغتراف منه، بعد أن حاصرهم الجوع، وتآكلهم القحط والخواء، سنوات طويلة وعقود عديدة، وأزمان مديدة، شديدة الوطء، تلتها أخرى أكثر وحشية وضراوة، وشيئا فشيئا تحول المأتم الموسمي في كل سنة إلى طقس يومي، اذ مازال السواد الأعظم منهم يبحث هنا وهناك، جائعاً داخل قبوه الرطب، دائراً عند المنعطفات والمسالك وعلى الأبواب المنغلقة، يغالب الفقر بين العيش مغتما بنفسه، لا يقوى على صناعة ذاته، والتخفي بعزاءات المغلوب على أمره، لائذاً بالصمت. يا لفداحة التاريخ، إنها أكثر من محنة، العلة كانت في البدء. يتكرر المشهد يوميا، ويوغل الضد، متمادياً في غلوه، ويزداد رياء الخلّص للنفاق، وبعض من يحسن الملق والخذلان، ليصبح ثمنا باهظا يدفعه الآخرون واللاحقون حتى النهاية.

# تسعة وسبعون +0= ثمانون

ليس هذا العنوان بالمزحة. ولا هو بالدعابة المشاكسة، كتلك التي يتعمد بعض سواق الأجرة وغيرهم كتابتها على مؤخرات عرباتهم، أو زجاج نوافذها، مثل (20 + 0 = 30)، ولا باللغز المحيّر الذي يقع ضمن الرياضة الفكرية، أو الأغلوطة المقصودة، لجلب الانتباه، والاثارة لأجل الاثارة فقط، بل هي معادلة صائبة، يثبت صحتها ما يلي من سطور.

من المعروف علميا إذا كان للصفر على اليمين قيمة حسابية، فإنه لا نفع له على الشمال مهما تكرر رسمه أو وضعه. إذ يبقى دالة على اللاشيء والعدم. يحدث هذا في منطق الرياضيات الذي لا نقاش فيه. لكن الغريب، والبالغ العجب، هو أن التورية والدلالة الشعبية ذات الحس التهكمي التي قد أغفلها الزمخشري في (أساس البلاغة) وسواه من المشتغلين الأوائل واللاحقين في علم الدلالة، خرجت عن هذه القاعدة، بتوصيفات للأشياء والأمكنة، بحسب ما تقتضي الحاجات، وما تقترحه مفارقات الحياة ومستتبعاتها المختلفة. إذ خالفت البلاغة الشعبية منطق الرياضيات وخطط الحصر والاحصاء وحدود التقسيمات وأطر التبويب والترقيم لتعلن عن أسماء وأمكنة هي من انشطارات الحوسمة ولواحقها، دوافعها العوز والفاقة لأسباب سابقة برزت في ظواهر تالية ومباشرة ما بعد تحولات العام 2003في مدينة ( ....) ذات التسعة والسبعين قطاعاً المرقمة رسميّا. ليس ثمة فرق واضح أو غامض أو كبير أو صغير، بين أن نقول صفراً على اليمين أو صفراً على الشمال. عندما يتعلق الأمر في البحث عن مكان حتى وإن كان غير صالح للسكن، أو مقبولا بعض الشيء في القطاع صفر. وليس ثمة حق لأبي الرياضيات إقليدس ومن تبعه أن يدافع عن أبسط مبادىء الحساب بخصوص هكذا اشكالية متعلقة بهذا الرقم المثير للجدل .

فالصفر ذات الصفر، أينما كان، عندما يصبح كيانا من بشر وحجر، القيمة ذات القيمة، سواء أكان على يمين المدينة أو شمالها، وأينما نما وكبر الحي العشوائي وتراكم بين أحشاء جهاتها الأربع. الصفر ذو دلالة ومعنى وأهمية لا تقل عن رقم آخر أو أية بقعة من المناطق المجاورة. المقيمون تحت سقوفه الدانية لا يختلفون عن سواهم. والقابعون بين جدران بيوته الرطبة، بمكوناتها المحتشدة والمبنية في أغرب كولاج فني اخترعته أياد لا تطال غير الرزق الحلال بأبدان ناحلة ووجوه شاحبة، كان من صفيح وحجر وبقايا حطام أرضي، استجمع من هنا وهناك، لا يتميز قاطنو المكان صفر، من حيث المظهر والمخبر عن سواهم، غير أنهم سكنوا عنوة هذه الأرض التي كانت مجمعا للخردة، ومكبا للأنقاض وبعضا من فضلات العاصمة الكبيرة، كأشباههم من قطاعات صفرية في أماكن أخرى، بفعل الفقر، وعسر الحال، بحثا عن ظل يأويهم وسقف يحميهم. دفعتهم الحاجة نحو اللاخيار والعيش في قطاع خارج الخارطة الرقمية الرسمية.

رحم الله الخوارزمي، حين ابتكر هذا الرقم ليكون اسما لملاذ يأوي هؤلاء المساكين الخارجين عن العلامات الادارية والحدود القانونية. ماذا لو يوضع الصفر كقطاع ورقم على يمين حسابات وأعداد ومعادلات القيمين والمسؤولين الذين يبدو أن علاقتهم به بالغة السوء، في كل الأحوال، ماعدا حالة فريدة واحدة، ألا وهي القدرة الفائقة بالعودة اليه، في كل مرة عندما لا يتفقون على التوصل والحسم لأدنى الخلافات واتخاذ أبسط القرارات على موائدهم المستديرة بعد مداولات ومناقشات تستغرقهم ساعات وأياماً وشهوراً لا تقبل العد. ماذا لو يضاف الصفر إلى التسعة والسبعين قطاعاً من أحياء المدينة، وبذلك يكون اسمه القطاع ثمانين، وعندئذ تصبح العملية الحسابية ( 79 + صفر = 80 ) وإن كانت المعادلة مغلوطة حسابياً في منطق الرياضيات لكنها صحيحة في منطق الحياة وفيزيائها.

# خيارات حرجة

ليس ثمة داع أن تتحمل أعباء الذهاب إلى حديقة الحيوان من أجل التسلية والفُرجة على عجائب المخلوقات المختلفة، ومنها القرود على نحو خاص، أو تتزاحم على شباك التذاكر لمشاهدة ألعاب السيرك البهلوانية. فهناك ما يشبه كل ذلك، بل ويعجبك أكثر، وهو متاح لك في بيتك. يمكن أن تراه قريباً جدا، بكل وضوح ويسر، عبر شاشات الفضائيات، نعم. هي تلك المتابعات الشائقة للوقائع والمواقف الكاريكاتيرية في جلسات برلمان المدينة غير المؤهلة أصلا لدخول عصر الألفية الثالثة الأخير وعهد الحداثة والتنوير.

لو واجهت سؤالا مباشراً وأنت على الهواء، عبر المذياع، أو ألفيت نفسك مشاركاً عن طريق المصادفة، من دون مقدمات، في برنامج تلفزيوني بجوائز مليونية لا تحصى للفائز الغائب المعلن، والمجهول المحدد سلفاً، ضمن خطة التنمية الشاملة الكبرى لإسعاد الناس ورفاهية المشاهدين من فقراء ومعوزين، وكانت صيغة الاختبار على النحو التالي: الحديد، والفولاذ، والنحاس، معادن قابلة للطرق والسحب، أيهما أكثر استجابة للتعديل عند الاعوجاج، أجب بالتحديد، وإن تعذر ذلك، كونك لم تعمل حدادا أو نافخ كور في مصهر الخردة، ولا عاملا ماهرا في سوق الصفارين، وليس من ذوي الاختصاص بمبادئ العلوم، أو كنت حاذقا هات حلّا تراه بديلا أو مناسبا ولو كان غير معقول، في كيمياء المعادن. في الزمن المقلوب أو العكس بالعكس. وتجنبا للوقوع في الخطأ اللامقصود، وتفاديا للسكوت المذل، ونظرا للهامش المفتوح من الحرية في الجواب، فما عليك إلا أن تعطي الرّد الأسلم الذي تقترحه بنفسك، بالرغم من طرافته أو حراجته معا. نعم. يمكن أن تجي، من دون تردد بادٍ عليك، بالقول الواحد الفصيح واللفظ الصريح: إن الأكثر قبولا للتبدل والتعديل اللامحدود مع دورة الزمان وتحولات العصور، هي تلك القوانين المتغيرة التي يسنّها الطغاة والمتسلطون بحسب أهوائهم المتقلبة ..

# تلك الأيادي

بدلا من أن تجتهد في المذاكرة يوميّا، ساهراً الليالي كلها، لنيل علامة الامتياز ودرجة الاستحقاق العليا في التاريخ الحديث، وقد تبحث قبل عشية الامتحان المرتقب عن طرق جديدة، وحيل مبتكرة لجيل أول أو ثان بعد المائة للأقلام السحرية في الكتابة الشبحية، وآخر اختراع في التمويه والاختباء، معتمدا أحدث تقنيات الاتصال الآمن لنجاح أكيد ومضمون، كما يفعل المجتهدون في التحايل والتزوير، عملا بالشعار الحضاري العلمي " التكنولوجيا في خدمة الغشّاشين".

أجب باختصار، حين يكون السؤال على الشكل الآتي: أوجز بأقل قدر ممكن الأسباب المكررة والأخطاء التاريخية التي تعيد نفسها في كل مرة، وتحول دون التخطي نحو أفق التغيير وازدهار البلاد ؟

لا تذهب بعيدا بالجواب، قل المختصر المفيد، نعم. هو أن أيادي ربتت على أكتاف الضباط الأحرار الذين لم يورثوا الأبناء والأحفاد والتابعين سوى عبوديات متلاحقة لسلطات متعاقبة غاشمة. أياد صفقت بكل حدة لخطابات الدكتاتور، وصافحت بحرارة وشدت بقوة معلنة على قفاز الجناة الملطخ بدماء من سقطوا في ساحات الاحتجاج، وغابوا في ظلام السجون .. وحملت عاليا رايات خفّاقة مع ريح الانقلابات والخيانات والفتن الأهلية..

لا يمكن لتلك الأيادي أن تصنع التاريخ وما يطلق عليه القاعدون على التل والقابعون في الظل جوازا، بالغد الأفضل الذي كلما أخذنا نحوه خطوة، وتقدمنا خطوتين، ابتعد سنينا وأكثر، بل تراجع عقوداً وقروناً ...

## مباهج قاتلة

كل شيء يتلظى ويحترق، ما اقتطع من سيقان الشجيرات البرية قصداً، ومن أعالي النباتات الباسقة حطباً في مجمرة الفحم المستعرة، كل شيء يتقد وينضج بنار الشواء، أفخاذ الضأن وحملانها الصغيرة، وما لذّ وطاب من الطيور الداجنة والطليقة، وسواها من اللّحوم الطريّة المحمّصة.

كل شيء يتوهج وينضج بهدوء في حفل طعامه اليومي، محمّراً، شهّياً، لأجل الذي لابدّ من أن يتلذذ بطعمها السائغ، متباهيا بالمأدبة الملوكية، ذلك هو السيد الباذخ المطالب، الذي يحرص أن يتعطر دوماً برائحة المسك من دم الغزال، المتعالي بفخامته الكبيرة، المزهو بثراء المائدة، من دون ألا يعي أو يعي يوماً، أن وراء لذائذه الأزلية ومباهجه الماحقة تلك، تاريخ فاجع وفظيع من سلاسل دامية، لن تنتهي أبدا، في القتل والدمار، لكائنات فاتنة بريئة، من الطبيعة الجميلة.

## سبّابة

فيما كان يمارس عمله كأجير يومي في ورشة النجارة، وهو يشطّر الألواح الخشبية إلى أجزاء مختلفة، ويعيد تكوينها على شكل صناديق وأقفاص شتى، وتوابيت عديدة جاهزة للقتلى، كانت أناشيد الحرب وبيانات معارك القوات المسلحة على الجبهة تنطلق عالية، مسموعة من مذياع قريب، تملأ فضاء المكان، فيما كان صوت المنشار الدائري يعلو بين فترة وأخرى، طاغياً على كل شيء، خافياً بذلك تلاحق الأغاني الحماسية والأنباء العاجلة للقتال وآخر التطورات للمواجهات على الحدود المشتعلة.

**كن حذرا  منه .. أخشى أن تفقد يدك، أو تبتر أحد أطراف أصابعك وتصبح ذات يوم معاقاً ..لا تقوى على حمل السلاح، ولا باستطاعتك أن تضغط على الزناد حين تفقد سبابتك .. ولن تصلح عندئذ للعسكرية، ولا لأشياء أخرى مهمة كثيرة في حياتك  ...**

**هكذا كانت اشعارات رب العمل وتحذيراته المتكررة الجادة من خطورة المنشار، إذا ما غفل عنه بأدنى لحظة، فيردّ عليه وقتها  متفلسفاً بإجابات مازحة ..**

**ليس بالضرورة أن يكون كل شيء مهماً، ما دمت أبقى محتفظاً بذكورتي، وهذا ما قد يمثل الحقيقة الفاصلة بين الوجود وعدمه ...**

**بات بمقدوره أن يسمع الآن صوت المذياع واضحاً، مع سكون هدير المنشار الكهربائي بعد أن أنجز بما فيه الكفاية من الأجزاء الخشبية الأخرى لصنع المزيد من الأقفاص وصناديق دفن الموتى.**

**تتعالى الأناشيد مرة  تلو أخرى،  فجأة يتغير المشهد، بين مصدّق ومكذّب، ينصت في أكثر من مرة  إلى خبر دعوة مواليده لخدمة الاحتياط في الجيش عبر المذياع، مصغيا إلى إعادة قراءة  بيان الالتحاق إلى وحدته السابقة، والانضمام فوراً أو خلال ساعات معدودة مقبلة، في أكثر تقدير. وفي حالة تخلفه، هو وأمثاله، سيلاحق المطلوبون منهم حيثما كانوا، في أماكن عملهم وزوايا منازلهم، وأينما وجدوا في الشوارع والمدن والقرى كافة. وبدلا من أن يتمالك نفسه، ويفكر قليلا بوجوب التحاقه في الساعات المقبلة، ومثلما كان يفعل أيام الصغر أو الصبا مع رفاق طفولته، يجعل من قبضة يده قفازاً للملاكمة أو عياراً نارياً وهميّاً للاشتباك والحرب، صنع شكلاً على هيئة مسدس، شاهراً سبابته اليمنى بوجه أسنة المنشار الذي اقتطعها في الحال ....**

## بصاق

---

**المرأة التي ثكلت ابنها الوحيد المفقود في جبهات القتال الشرقية، أبان حرب الثمانينيات لم يهدأ لها بال ولم يطب لها خاطر يوما، مذ تلك المصيبة التي ألمت بالأسرة المعيلة**

**الوحيدة لها، والمكوّنة من زوج مقعد وثلاث بنات قاصرات. الأعباء الثقيلة في السنوات التالية للحدث المفجع زادت الأم همّا وغمّا، ودفعت بها الأيام العصيبة من خادمة في بيوت الأثرياء والموسرين، وغاسلة صحون وراء كواليس المطاعم، حتى آخر مهنة كعاملة تنظيف في شعبة المتابعة والخدمات بإحدى كبريات دوائر الدولة.**

**كانت بحضورها المبكر تبدي عناية بالغة في تنظيف غرفة الأستاذ المدير العام، تنفض الأتربة والغبار عن الأثاث الفاخر لمكتبه البالغ الفخامة والثراء.**

**وحين يكون المكان خاليا إلا منها، وكجزء من العزاء الغامض مقابل حزنها العميق، تظل تتمتم بكلمات مبهمة، لا يدركها أحد، كلما واجهت الصورة المعلقة القريبة ( للسيد الرئيس القائد )، وهي تمسح عليها بتردد، وتتنهد بحسرات مؤلمة شبه مسموعة، ثم تطلق عليها بصاقا متواصلا، وتلفظ رذاذا لزجا، لا ينتهي إلا بجفاف لسانها المكتوم أبدا، تعبيرا عن الاحتجاج المقموع والسخط الدفين.**

**ذات يوم صيفي، وكما تفعل كل صباح، بعد أن نظّفت سطح المكتب الزجاجي الذي بدا كالمرآة لامعا صقيلا، أخذت تمارس ما تقوم به كل مرة، حتى فوجئت بصوت المدير وهو يقول بغرابة:**

**– ماذا تفعلين يا ...؟**

**– نعم ماذا...؟**

**– ...**

**– لم أقصد شيئا في البصاق، إني أمسح به وجه الصورة ، عوضا عن الماء الذي لم يعد موجودا في صنابير مياه الدائرة، منذ الصباح، حسبما يقولون ..**

# قبلات على جبين محموم

هي لا تملك أسبابا كاملة وأدلة كافية، تجعل من اعتقادها الراسخ به قلقا أحيانا، أو قد يكون يقينها المطلق متذبذبا بعض الشيء، إلا أنها هكذا تبدو إزاءه، واضحة في الخفاء والعلن، بدوافع الغيرة وعواطف الحب التي يدركها تمام الإدراك بنفسه.

ليس بمقدورها أن تتظاهر بدور صغير وقصير جدا، لا يطاق لحظة، حتى ولو كان في نهاية اللعبة ليس أكثر من مزحة.

أما هو فقد كان ينسج بعض المرات حكايات ملفقة عن بطولاته الغرامية وقصصا قصيرة غريبة، لا يبغي منها شيئا، أبعد من أن تكون لمجرد الطرافة والإثارة التي لا تخلو من دغدغة مشاعر الشوق وأحاسيس الحب الكبير بين الاثنين، وقصته الطويلة الباهظة قبل الزواج السعيد بمروياته المستعادة الممتعة في أغلب السهرات.

ذات مساء، فيما كان الرجل يحكي قصة حب جديدة قديمة، تبدو ملفقة عن فتاة التقاها في سنوات الصبا والمراهقة، منهمكا في سرد التفاصيل، كانت المرأة إلى جواره تصغي بملء أسماعها المرهفة، وتذرف الدموع الساخنة سرّا، بألم ممض وبكاء مكتوم، استطاع سماعه مؤخرا، فقطع ثرثرته السمجة ليطبع أكثر من قبلة على جبينها المحموم.

---

# الفُرجة المثيرة

يدخل في الغرفة المخصصة لإبدال الملابس بدار العرض الكبير، يخلع زيّه الاعتيادي الخاص، ناظرا بعناية دقيقة إلى مظهره أمام مرايا كثيرة، متفحصا ما يرتديه من بدلات حديثة جاهزة، منوّعة، يخرج بها في كل مرة، واحدة تلو الأخرى إلى الجمهور المحتشد في قاعة الاستعراض. يخطو بالموضات الجديدة باتجاهات مختلفة، يدور بين حضور المشاهدين المشيرين إليه إعجابا، والمحدقين به من دون انقطاع، طوال ظهوره بمشهده المتغير الأنيق،

والنظر اليه من زوايا عديدة ببالغ الاهتمام، حين يكون حاضرا لتكرار هذه الفرجة المثيرة لمتابعي أحدث الموديلات وعشاق صرعات الموسم الجديد.

بعد الفراغ من دوره، حين ينتهي من الاعلان عن آخر بدلة تماما، يعود مرتديا ملابسه الشخصية، يخرج عارض الأزياء من دون ضجة، بخطى ثقيلة، وحيدا دونما نظرة إعجاب، ولا حتى التفاتة عابرة في أقل تقدير، للمارين به من مشاهدي العروض وسواهم، داخل أروقة الدار المضاءة، وخارجها الفسيح.

## فصل في النهايات

في أول الصبا، كان بعضهم يقول لبعض: تعال لنتسكع معا ..ما أبهى الحياة في التسكع؟

يطلقون سيقانهم الرشيقة والنشيطة للريح والكرات الملونة على المنبسطات الدغلية، فوق بلاط الطرقات وفضاء الساحات المكشوفة، هنا، وهناك ...

شبوا عن الطوق يافعين، ومراهقين، فراحوا يطوفون في الدروب والأسواق، تحت أضواء قلب المدينة، يتعقبون الموضة الجديدة ورائحة الفتيات، يمارسون أشياء مشاكسة لجلب الانتباه لا أكثر، يكركرون، يتبادلون النكات غير البريئة ضاحكين، غير مكترثين لما يمكن أن يضمن لهم غدا لاحقا أفضل، مثلما يسعى الآخرون.

في دورة الفصول وسخرية الأقدار، سرعان ما غدوا كبارا يلوذ بعضهم ببعض، كلٌ يقول لنظيره الذي شاخ قبل أوانه: تعال لنتبضع معا ..ما أشقى الحياة في التبضع؟

حاملين أكياس الخضار وما يمكن من لوازم العيش الكفاف، مغتمين من قسوة الزمان.

يتبادلون الاتهامات بفوات الأوان، وضياع الفرص الثمينة مقابل رهانات خاسرة على أحلام وأوهام كانت بعيدة المنال دائما.

# الذكرى العشرون

خرج السكان لإحياء اليوم التاريخي الوحيد لبلدتهم في العهد الجديد. وذلك لمناسبة مرور الذكرى السنوية العشرين لزيارة حاكم البلاد الخاطفة لشوارعهم ومنازلهم القابعة في أقاصي شرق العاصمة، ناشرين، كما في كل مرة، مظاهر الزينة ومباهج الاحتفال. هنا وهناك، وفي أبعد زاوية مهملة من الأرجاء المنسية. عند نهاية هذا اليوم الخالد في كل الأعوام الماضية، كان المحتفلون يعودون أدراجهم على أمل يتضاءل شيئا فشيئا في تشرفهم بصاحب السمو العظيم، في زيارة جديدة مقبلة طال انتظارها عقدين كاملين من الزمن.

ما كاد المساء يحل، حتى فوجئ الجميع، هذه المرة، بانتشار سريع لقوات التدخل السريع عند مداخل الطرقات ومخارجها، وعناصر أمنية خاصة تعتلي بخفة فائقة سطوح المباني، وشرفات البيوت، فيما حلقت على نحو خفيض طائرات عمودية تكاد تلامس رؤوس العمارات.

المشهد المفاجئ برمته يعلن عن ظهور مباغت في لحظة سرية للزيارة المرتقبة منذ سنين طويلة لسموه المبجل الذي برز محاطا بأفراد حمايته الرئاسية الخاصة، وهم يضربون طوقا أمنيا مشددا حوله، متأهبين على أتم الاستعداد ببنادقهم الرشاش وأسلحتهم الأوتوماتيكية لأي طارئ قد يحدث، وتحسبا لأدنى خطر داهم أو تهديد محتمل يطال حياة القائد المفدى الذي راح يحيي صفوف الجماهير المحتشدة والمندفعة نحوه، والمبعدة عنه بقوة قبضات الحرس الشديدة وكعوب أسلحتهم الذهبية اللامعة، عشرات الأمتار والأمتار، كما لو أنهم في الظاهر لا يخشون عليه من أحد، بل يحافظون بحذر شديد على ترجمة روح المساواة التي يحرص عليها بأقواله وخطبه في أن تبقى المسافة واحدة بينه من جهة والمواطنين من جهة أخرى.

كانت الحشود الغفيرة ترفع أياديها ترحيبا وتأييدا للزيارة الميمونة، وتطلق الهتافات الممجدة لمقدمه المبارك العظيم. فجأة وعلى حين غفلة، سرعان ما ينفلت من بين الجموع المتزاحمة رجل في الخمسين، باتجاه الموكب الرئاسي الكبير، ملوّحا بيد، وأخرى خافيا فيها شيئا ما تحت قميصه، بدت مضمومة على أمر مريب. ما أن همّ بإخراجها حتى سقط في الحال صريعا بنيران كثيفة من فوهات الأسلحة الحديثة لقوات الحرس الشخصي الذين ما لبثوا أن واصلوا المسير، موسعين النطاق الأمني أكثر فأكثر حول سيدهم الجليل. فيما هرع الناس مذعورين إلى مكان الحادث، كاشفين عن حقيقة القتيل المطروح أرضا، لم يجدوا شيئا خفيا سوى عريضة ورقية ملطخة بالدم، استطاعوا أن يلاحظوا ما كتب عليها ويمكن قراءة بعض الكلمات ... ( .....المعروض لسيادتكم / ....طلب مساعدة ....).

## كاتب شهير

في أكثر من مرة يدفع بها عن أفقه المكتظ بالصور والخيالات، ساعيا لإبعادها، لكنها سرعان ما تعود من جديد، أشبه بقطع فلين فوق سطح الماء، كلما غمرها ظهرت طافية، طاغية على ذهنه. تلك هي الأفكار والرؤى المبعثرة التي ظلت تلاحقه على مدى ليال لا تحصى، كمشروع لكتابة قصة قصيرة أو طويلة قابلة للتمدد بحسب لحظة الكتابة. لم يستطع الكف عن التواصل معها، ومثلما هي في تجاربه المبكرة الأولى، أصبحت الشغل الشاغل، وواحدة من ثمن الشهرة الباهظ، والأحكام الملزمة لأي واجب طوعي لكاتب مرموق مثله.

شيئا فشيئا، تحول النص الجديد المنهمك في صناعته في أوقات مختلفة، وأزمان محتدمة قلقة، من خواطر غائمة وتخطيطات أولية متشظية على قصاصات الورق إلى قصة مكتملة، بالغة النضوج ..

بعد تأمل وتأن وطول انتظار لظهورها غير المبكر في الصحيفة، لدواع لا علاقة لها باسمه اللامع الذائع الصيت، ولا بقواعد النشر المتبعة، وانما لأسباب اقتصادية يفرضها

**الاعلان التجاري دائما بسلطة المال وسطوته الربحية، نشرت القصة لاحقا، في مساحة مضيئة، وتحت عنوان كبير وبحروف طباعية مميزة، بصورة لافتة، على اتساع كامل للصفحة الثقافية في كبريات الجرائد المهمة.**

**في الوقت الذي كان الكاتب الشهير يتفحص حكايته، جملة إثر أخرى، مستعيدا مع نفسه التفاصيل، ثمة هناك على الطرف الآخر العديد من القرّاء، في أكثر من مكان، يتصفحون الجريدة ويطالعون ببالغ الاهتمام مختلف مواضيعها المنوّعة، يلقي بعضهم بها جانبا، بعد الفراغ منها، ويتركها آخرون على مقعد في الباص والمقهى وأي متسع يصادفهم على قارعة الطريق. على الرغم من عنوانها البارز والمثير، فقد كانوا يمرون على ما كتبه بأطراف أعينهم في نظرة سريعة خاطفة، مكتفين بقراءة الكلمات الأولى، بلا أدنى اكتراث، ولا بأقل من دقائق أو ثوان لقصة طويلة استغرقته أياما وليالي طوالاً، حكاية لا يمكن تجاهلها بالمرة في لحظات.**

---

# حكاية طفل منغولي

**أخذوا على أنفسهم عهدا بتقديم النذور والقرابين لوجه الله، وإقامة ولائم طعام كبرى، عندما يقع الحدث السعيد، ولابدّ من أن يعلنوا عنه بالصلوات المباركة والزغاريد العالية والاطلاقات النارية للداني والقاصي. ولم يكتف الأهل لحظتها عن هذا وذاك، بل ستقصد الجدة مشيّا على الأقدام مرقد الولي الصالح الذي يبعد عشرات الكيلومترات عن قريتهم الصغيرة النائية، الغارقة في عزلتها الغامضة عن محيطها البري المفتوح، نعم. وسينثرون الحلوى على رؤوس القادمين للتهاني والتبريكات بالمولود البكر الذي طال انتظاره أياما وسنينا.**

في ليلة باردة، ولد الطفل الموعود باكيّا وسط صمت الأهل المطبق، وذهولهم الكبير، وهم يدققون النظر فيه. كان شكله غريبا ولافتاً للانتباه، ذا وجه مسطح ومستدير بفم مفتوح، وعينين مرفوعتين للأعلى، وأنف أفطس قصير كاليدين ، لا يشبه أحدا في العائلة في أي شبه يمكن أن يذكر ..

بعد الصدمة المخيبة، لم تقرُ عين ولا يهدأ خاطر للجميع ، وبدلا من أن يفي أي منهم بما وعد به قبل الميلاد المرتقب، راحوا يبحثون عما هو قريب الشبه به، ولو كان قليلا بينه وبين سكان الحي، وحتى المناطق المجاورة والبعيدة، مدفوعين هنا وهناك، تتنازعهم الشكوك والشبهات. لم يعثروا على دالة أو علامة واضحة، إلا بعد أيام من البحث المضن وجولات خفية عديدة من التقصي الحثيث. أدركوا على نحو ما، أن ثمة من يشبهونه كثيرا، هناك من عشرات الصينييّن والكورييّن العاملين في شركة للتنقيب عن البترول، في أبعد نقطة من أطراف القرية .

ما أن أسدل الليل ظلامه بعد الكشف المزعوم عن الحقيقة، حتى فارق الطفل وأمه الحياة سرّا ...

## كريات العث

لم يعد ما يمارسه سوى فعل يتكرر كل مرة لاستعادة أمل متوار، يتباعد متلاشيا، كلما حاول اللحاق به، على الرغم من يقينه البالغ بأن لا شيء وراء ما يصنعه. سيظل هكذا حتى النهاية المجهولة يطارد هوام الظلام، قوارض الظل، ديدان العث، في مهمة عقيمة، باهظة، وأكثر من شاقة.

من العبث أن يتحدى مخلوقات مرعبة، لم يتمكن منها برغم صغرها، فهي في الضد دوما، سرعان ما تحيا في الأمكنة الرطبة والزوايا المظلمة، عالقة في الملاءات والمفارش، بين مسام أنسجة الملابس، تكمن ملتصقة في بدلات الأب المخزونة في دولاب من خشب

الساج بين أحشاء الغرفة المغلقة المنفردة. لا بدّ من أن يهرع من هناك إليها مرغما على علاجها، لن يكف عنها أبدا، مادام بمقدوره أن يفعل ذلك.

بارتباك واضطراب يعود إلى بيتهم القديم عبر رواق شبه معتم، بعد رحلة مضنية، قادما من مهجر العائلة الطوعي الذي أصبح قسريا فيما بعد بحكم الأوضاع الأمنية، عابرا مدنا عديدة ومحطات كثيرة ونقاط تفتيش حدودية، متطلعا في وجوه غريبة وعيون غاضبة محتدة وأخرى أليفة متعبة ..

يندفع خطوات متعثرا، وهو يستأذن بالدخول شاغل الدار الذي اعتاده مرارا وتكرارا منذ سنوات قريبة، متسللا إلى الغرفة المعزولة، المقفلة والمزدحمة بودائع الأهل الغامضة وأشياء معلنة فائضة عن الحاجة، مغطاة بالغبار.

يفتح دولاب الساج الذي ذهب بريقه وفقد لمعان تيجانه بفعل تراكم الأتربة، يدس حبات النفتالين في جيوب البدلات المختلفة التي لم يعد يرتديها، العجوز الشقي والمبعد المسجى الآن على فراش أبيض، هناك خلف الحدود في بلدة مجاورة، يتلقى علاجا وهميا لن ينفع ..

لابدّ من أن يكون حضور الابن ضروريا وملزما هنا في غرفة الودائع، قبل أن تتلاشى وتذوب كريات العث السابقة وتفقد رائحتها في طيات البدلات الكالحة التي أصبحت بطرازها السبعيني وهي مدلاة داخل الخزانة الخشبية، أشبه بأنصاف جثث محتشدة، يتفقدها بعناية مثلما يتحسس كيان الأب المتهالك، ويراقب كل إشارة أو نأمة تبدر منه، منقادا وراء رغبات بالغة التعقيد والتنفيذ أحيانا، لن تنتهي هذه المهمة الجسيمة مادام هنالك حركة أو إيماءة تصدر عن رجل يتآكل ببطء شديد بين الصحوة والغيبوبة ..

لابدّ من أن يعاود المجيء إلى هنا، مبكرا بين فترة وأخرى لأجله، قبل أن تعشش عثة الملابس، وتضع تلك الآفات البغيضة بيوضها الانتشارية في حمى خفية سريعة في أبعد نقطة من ثنايا البدلات التي ما زال الرجل الكهل يعتقد أنه سيعود ذات يوم إلى وطنه ويمكن أن يرتديها واحدة تلو الأخرى، ويخطر بمظهرها اللافت الأنيق في شوارع بغداد المبهجة، كما هي في ما مضى من تلك الأيام، غادرها مهاجرا بفعل النزاعات والحروب الأهلية المتلاحقة.

هكذا سيبقى رهن إشارة أبيه وحلمه الموعود، سيظل في سباق محموم مجهول بين آمال تتضاءل ومحاولات تتهاوى أمام مخلوقات تزداد ضراوة يوما بعد آخر. يمكث زمنا طويلا في عتمة الغرفة أحيانا، وينخرط في بكاء مكتوم، لكنه مسموع من شاغلي الدار. يمكن أن يلتقطوه مختلطا برائحة النفتالين أو كريات العث، حين يهم بالخروج وينتهي من مهمته الدورية الأزلية. لم ينطق إلا ببضع كلمات يرددها بعلانية ولوعة: ( عمان أصبحت ملاذنا الأوحد المرّ، عاصمة الرسوم والضرائب، عند كل خطوة لابد من أن تدفع مقابل كل شيء ثمنا مضاعفا .. وبغداد لم تعد آمنة ولا صالحة للسكنى بعد اليوم .. تلك هي المحنة ..! )

ثم يختم حديثه، مستدركا في نهاية المطاف أمام نزلاء البيت، ومذكّرا إياهم عند كل عودة مريبة ومثيرة لشكوك الآخرين من أهالي المنطقة، و سكانها الجدد الغرباء القادمين من بقاع شتى ..

كان يؤكد قائلا: لا تنسوا أن تسقوا الحديقة العطشى يا أهل الدار .. والنخلة المصفرّة من فرط الجفاف، على وجه الخصوص .. قطرة ماء قطرتين في الأقل .. أليس كذلك ..؟

**000**

وبعد طول غياب عاد أخيرا. لم ير الطيور المعششة والمغردة دائما في أعالي نخلة البيت الوحيدة الذاوية .. ترى هل اختفت في ظروف غامضة، أو هاجرت كما هم الأهل وسواهم إلى البلاد البعيدة ..! دخل عبر الرواق يمارس لعبة كل مرة، حيث غرفة الودائع، آخر ما تبقى من المنزل كمساحة للحرية، يسمح له ما يشاء من التصرف بها عند السرّ والعلن، هذا ما تبقى من الوطن الكبير، بقعة صغيرة محدودة من أرض البلاد الواسعة.

يخطو الى الأمام مصّرا على أن يبيد كائنات الظلمة المقرفة هذه المرة، عن آخرها تماما، وكمن يقتفي أثرا خفيا، راح يمشي على رؤوس أصابعه بهدوء وحذر، ما أن فتح باب الغرفة المغلقة حتى انطلقت نحوه ديدان طيّارة عملاقة، تتزاحم على نهشه، تتزايد متلاحقة في

أعقابه، يفر بعيدا خارج حيّه السكني القديم، قاطعا أفق طريق مفتوح ومعهود أيام الذهاب إلى المدرسة بمشقة بالغة، مندفعا على مضض، مخلفا وراءه متاهات الأزقة الجميلة وملاعب الطفولة المبهجة. كم كان مرتبكا وهو يمر بساحات ونواص، كانت يوما ملتقيات لرفاق الصبا وأصدقاء المراهقة في ذلك الزمن السعيد، هاربا إلى فضاءات تضيق به أكثر فأكثر في عمق الدروب وخلاءات الشوارع الموحشة ..

كانت بيوض العث تنفقئ عن يرقاتها خلفه، بسرعة مذهلة، وتتحول إلى حشرات مقاتلة، ضخمة، أشبه بمروحيات حربية مرعبة محلّقة في السماء عاليا، تحوم حول المدينة التي فقدت شيئا فشيئا هدوءها تحت ظلال هذه الكائنات الغريبة، ودوي المدافع وأصوات الهاونات ومصائد المفخخات المميتة في الأسواق والطرقات، وصخب الطائرات الأميركية بعد سني الاحتلال وفصوله اللاحقة.

## ظلال شيء لن يمحى

وحدهم يحثون خطاهم المرتبكة، غرباء في اللامكان، ليس بمقدورهم أن يتوهموا شيئا يصلهم بالرائحين والغادين من المارة، يخفقون في تحقيق أدنى علاقة تربطهم بما يحيطهم، ومن يقابلونهم عرضا، أو وجها لوجه، من العابرين على الطريق، في أرجاء شتى من متاهات المدينة المضاءة. هنا سيدة وطفلها يلعقان زبد البوظة اللذيذة ويقضمان الحلوى المغطاة بالكاكاو، وهناك امرأة خلف واجهة الزجاج تمارس التخسيس في مركز اللياقة وعلاج السمنة، لم تثر فضولهم العادي، لا أحد يعرف أحدا، ولا ثمة من يتعرفهم. ليس هناك سوى يافعين، ومراهقين يقهقهون خلفهم، وإلى جوارهم القريب رجل بدين، ينظر إليهم شزرا، وهو يتلذذ بتبغ غليونه تحت قبعة من نسيج فاخر، يقل مركبته الخاصة الفارهة على عجل، ويمضي مخلفا على وجوههم غيمة من دخان أسود، يتطاير خلفه.

هكذا بدا المشهد مقلقا، حين نزلوا أول وهلة بأرض البلدة المنفردة على أطراف الصحراء، بمواجهة البحر، وبرغم ذلك الانطباع الأول، فأنهم آثروا المكوث طائعين، في هذا المنقطع الأخير لامتداد البر عند الشريط الساحلي.

إنهم بقايا من مهاجرين غير شرعيين، ضلوا الطريق أو تقطعت بهم السبل إلى المبتغى المأمول، والمجهول، القصي في ما وراء البحار، اختلطت عليهم الوجهات. ولم يعد بوسعهم مواصلة الرحيل أو العودة من حيث قدموا، أو من البلاد التي هجرتهم، فغادروها شمالا حيث الشتات.

لم يستطيعوا اللحاق بمن سبقوهم قبل أيام عدة، كاملة بلياليها، اختفوا عنهم في نهاية الأفق، بعد أن بلغوا هذا المكان عند حافة البحر. انطفأت ظلالهم في نقاط التلاشي السماوية، وضاع بعضهم بين مكائد الأدلاء وألاعيب سماسرة التهريب، وآخرين انتهوا في قبضة خفر السواحل، وسواهم من ابتلعهم أعماق المحيط، قبل أن يسمعوا حالمين بتكسر الأمواج على شواطئ الأمان البعيدة.

يوما بعد آخر، بدأت تتكشف أمامهم تفاصيل القسوة الخفية للمدينة الفاتنة الأضواء في العلن. يعرضون كل يوم سواعدهم الضامرة في الأسواق للتجار والمقاولين، عند مكاتب التشغيل، وساحات العاطلين. مارسوا أعمالا شتى، بالكاد يتدبرون عيشهم، تمتد بهم الأيام الثقيلة والليالي الطوال، أجراء أذلاء بأنصاف الدنانير المعدودة، شيئا فشيئا ساءت أحوالهم، واضطربت أوضاعهم، حتى وجدوا ذات يوم أنهم عاطلون تماما عن العمل، وتحت قسوة الظروف وضغط البطالة واشتداد المعاناة. كانت أفواههم وبطونهم الفارغة تدفع بهم إلى أي أعمال ممكنة، حتى غدوا بين عشية وضحاها، من حيث لا يدركون، خبراء سريين في بقايا المأكولات وأطعمة القمامة وفضلات الحاويات في الأحياء الغنية والأمكنة السياحية الباذخة، يتقوتون في الخفاء بما يتبقى من موائد مترفة، وفتات مآدب كانت عامرة لأصحابها بما لذّ وطاب ..

000

في عشية اليوم الأول على قرار الاقامة، حين خلصوا إلى الاتفاق على تمديد البقاء الطوعي بأنفسهم، بعد أسابيع عديدة، وآثروا المكوث مدة أخرى، قد تكون مفتوحة على كل الاحتمالات، صمتوا في هدأة الليل، واستمعوا بشغف منصتين إلى أحدهم:

يروى عن جدي العاشر، في أوائل اربعينيات القرن الماضي، أنه ذات نهار صيفي ساخن ذهب هو وأصدقاؤه من الشبان العاطلين يبحثون عن عمل ما، مقابل أي ثمن. وقفوا في ساحة العمال بما فيه الكفاية، تعفنت أقدامهم في أماكنهم القلقة حتى آخر الظهيرة في انتظار اللاجدوى، ثم انسلوا على مضض، هابطين إلى الشوارع الخلفية للبلدة القديمة، منهمكين في تطوافهم العائم بحثا عن أفق قريب أو بعيد، ماذا عساها أن تفعل مجموعة صغيرة، سيئة الطالع، مثل ثلة جدي المتسكعة الجوّالة، على أية حال، وبرغم ذلك فلم ينل منهم الاحباط ولا اليأس قيد أنملة، لأن هناك دائما ظلال شيء ما، لن يمحى أمام عيونهم، ولا يفارق دواخلهم أبدا ..

- لا بدّ من أنهم عادوا أدراجهم، عادوا من حيث انطلقوا ..

- طبعا ما الذي يمكن أن يفعلوه في آخر المطاف ... ؟

- كلا. لقد أصروا على المضي قدما، وقرروا الذهاب إلى النهر واصطياد ما يمكن اصطياده من السمك. أكملوا عدتهم وتوجهوا على جناح السرعة وألقوا بشباكهم ومصائدهم الملأى بالطعوم إلى عمق الماء. مرّ الزمن بطيئا، كانت خيوط فخاخهم خلاله تهتز عن حركة ما في أسفل النهر في كل مرة. كلما كشفوا عنها وجدوها خالية من الطعوم الدبقة، شارف النهار على نهايته وعند الغروب عادوا خفافا من حيث جاءوا ...

- من دون أدنى شك، رجعوا مبكرين قبل أن يدركهم الظلام ..

**- كلا. لقد هرب الجميع خائفين بعد أن علقت في شباكهم تكوينات لزجة بشعة ضخمة جدا من ثعابين النهر ..**

**لم يكن يدرك الجميع على وجه التحديد أن زمن السرد لقصة الجد الخائب أو الأخيب الكبير الذي ترحموا عليه في نهاية الحكاية، استغرقهم ليلة كاملة لولا ضوء الفجر الذي ظهر على زجاج النوافذ المتصدعة.**

**في الصباح هرعوا كعادتهم مسرعين إلى فضلات الولائم الدسمة، المكتنزة من الليلة الماضية، إلى ما يرمى من أطعمة قابلة للقضم والهضم في مكبات النفايات في الحاويات البلاستيكية الأنيقة. توقفوا فجأة، كل يحدق بوجه الآخر في غرابة وابتسام مكتوم، ويدققون النظر غير مصدقين في مرأى النسوة والأطفال الساحليين من أهل البلدة الذين جاءوا إلى جوار منزلهم المنزوي، يفتشون عند الباب في أكياس نفاياتهم الفقيرة خفية، يبحثون عن أشياء تؤكل من مخلفات جامعي بقايا الطعام الزائدة، أو في ما قد يلقي به المهاجرون الأشقياء في بقعة تبدو للسواح والزائرين في أول وهلة مكانا مثاليا للمسرة والجمال، كما لو أنهم في مدينة فاضلة، حالمة . ..**

## طلقة في الفراغ

**ولأنه لا يعرف يوما آخر سوى عشية العيد، من كل عام، كان يؤخذ بيده الغضة إلى السوق، ويقتني برغبته أو بدونها أحيانا، بدلة أنيقة أو رداء جديدا من محال الرصيف المكتظة.**

**ولم يتذكر ذلك الحدث الكبير إلا في تلك المناسبة الوحيدة. لذا فهو لا يستطيع تصديق فكرة شراء الملابس الجديدة والخروج بها إلى الناس والشوارع في أي وقت يشاء، من دون حلول صبيحة العيد البعيد دوما..**

قد تخطر في باله أو تغيب عن ذهنه أطياف شتى للأشياء الأثيرة بطعمها البكر، مقاعد التعلم في المدرسة الابتدائية قدوم الأم بسلة التبضع. حلوى أصابع العروس اللذيذة، لقية ثمينة على قارعة الطريق، الإمساك بطيور بيض في صباح ضبابي، اللعب صيفا في ظلال بيوت المحلة، رائحة التراب والعشب عند أول المطر، ملاقاة عودة الأب بعد السفر، الجري خلف الأصدقاء عبر متاهات الأزقة المجاورة ، زيارة منزل الأجداد الكبير، الذهاب إلى العمة الوحيدة في بيتها، والإقامة بضعة أيام أو أكثر خلال العطلة الصيفية هناك، هدية النجاح في البكالوريا، الظهور المفاجئ لاسمه في كتاباته على ورق صحيفة منسية، أول الأنخاب في مساء شتوي مع نديم لم يعد حيّا، القبلة الأولى على جبين من يحب. ليلة الزفاف، البشارة بالمولود البكر، طلائع غيوم وسط سماء زرقاء صافية، تباشير ربيع مقبل، أواخر صيف طويل ساخن، تلقي رسالة من عزيز مجهول الإقامة، استرجاع لأمكنة الطفولة والصبا، القاء نظرة أخيرة في فراق أبدي، صورة التخرج في الجامعة ....

سرعان ما تختفي كل تلك القصص والحكايات والإحالات المبهجة، ولم يدم من خيالات الذكرى الأكثر حضورا إلا تقاويم العسكر وأيام الجندية الدامية في سنوات حروب البلاد الطويلة ، ونزاعات الجوار المسلحة، كفصل لاحق وطاغ لأيام وأرقام لا تنتهي من الخيبة والاستلاب، من حياته الممتدة بين التاريخ المثبت سهوا أو على وجه الدقة والتحديد في بيان الولادة وشهادة الوفاة المؤجلة ...

حاول أن ينسى أو يتناسى عمدا، لحظة الالتحاق في يوم تموزي قائظ بساحة الإعداد والتدريب، وكآبات الثكنة العسكرية التي تفصله عن سقف البيت ودفء العائلة، إلا أن ذلك التاريخ يظل يطارده..

– قف، هل نسيت شيئا ؟

_ ........؟

لم يمتلك أمام تلك العبارة الآمرة، سوى أن يتفحص بدلة الجيش النظامية، ويتثبت من وجود قبعة الصوف أو البيرية السوداء فوق رأسه الحليق تماما..

**كانت تلك الكلمات تلاحقه، يراها في كل أفق من جهات المعسكر الأربع، مكتوبة هنا،مدلاة في لوحة هناك، أينما يحلّ و يعطي وجهه، في ساحة العرضات، قاعة الفصيل الثاني، رواق سرية المقر، خيمة وسط العراء، فوق تلة بميدان الرمي، عند الخندق الشقي للحجابات أمام منطقة الحرام، بين الربيئة الثلجية بأعالي الجبل، في رؤيا المنامات، لحظات التمتع بالإجازة الدورية، وعشية الالتحاق بالجبهة المستعرة، تتراءى أمامه حتى النهاية.**

**كمن للعدو في خنادق المعركة، بكامل عدته القتالية، صمد سنوات على امتداد المواجهة، ولم يرم طلقة واحدة. أعيد إلى الخطوط الخلفية، حارسا جوّالا في دوريات راجلة، ولم يخط خطوة واحدة، إذ بقي مرابطا بحسب الأوامر العاجلة، يراقب من مكانه أو نقطة الحراسة قدوم المتسللين والعابرين الذين لم يبصرهم أو يلمح أحدا منهم، على مدى مكوثه وتحديقه شهوراً طوالاً وليالي لا تحصى، في الجهة المقابلة.**

**إلا أن طالعه العاثر على الدوام أخطأ هذه المرة، وحالفه بعض الشيء عن طريق المصادفة، فانتقل جنديا مأمورا في سرية لحماية بهو الضباط، وخلال خدمته في حراسة أسياده الكبار بنادي القادة بمركز المدينة الهادئة، لم يستدعِه موقف أو تحد خطير لإطلاق رصاصة واحدة ضد مشتبه به في المكان المضاء بأنوار ملونة ساطعة، أو عابث في أمن المنطقة.**

**ذات مساء بارد، في ساعات نوبات حراسته المشددة، وتحديدا عند الساعة الثانية والنصف ليلا، تحسس صمام الأمان في البندقية الأوتوماتيكية الجديدة، ضغط على الزناد سهوا، دّوت اطلاقة في الفراغ، فسقط، القائد العام والجنرال الأكبر فجأة خلفه، حطاما منثورا، وشظايا مبعثرة، تهشم هنا وهناك، هوى من أعلى الجدار، فوق البلاط الملمّع في صورته المزججة الكبيرة، قبل أن يحين الصباح، بصمت بالغ اقتيد إلى السجن من دون مقاومة، وعوقب بتهمة التآمر وقلب النظام ..**

**– قف، هل نسيت شيئا؟**

ما زال الصوت يلاحقه مذ تلك السنين، باللهجة الآمرة ذاتها، ما أن يتناهى مجددا إلى مسامعه حتى يتحسس ما فوق رأسه، متوهما بيرية الصوف السوداء، وقتئذ لم يلامس سوى طاقيته المصنوعة من القطن، متوّجا بها كأي رجل بلباس المسنين الموقّر.

وكلما يسمع صوت اطلاق ناري، قريبا في الجوار، أو في أطراف قصية، يرتعد خوفا، ويخشى أن يعاد من جديد، ويدفع عن ذهنه المشوّش بمشقة بالغة، تلك الفكرة المقلقة دائما، بأن هناك من سيأتي عاجلا أو آجلا، ويقبض عليه بقوة، ويلقى به ثانية، وبالحكم المؤبّد هذه المرة، ولو أمسى على مشارف السبعين ...

## صلوات

قبل انحسار الظلام وبزوغ خيوط الفجر الأولى للصباح، تسلل حاكم البلاد للصلاة في الجامع الكبير الذي بنى قبابه ذات الأهلة الذهبية بالخزف القاشاني الفيروزي اللاصف، ومآذنه المدوّرة، الممتدة عاليا نحو السماء، بالآجر والمرمر النفيس، والتمعت حيطانه الرخامية من الداخل بآيات قرآنية خُطت بماء الذهب، وزُينت مداخله ومخارجه بزخارف اسلامية، تفرعت هنا وهناك في جلال المكان بين السقوف المحدبة والأطواق المتداخلة برياَزة بالغة الدقة لتمتد فوق جداريات شتى، وسجاجيد بهية بتكوينات حروفية فوق زغب كثيف، افترش أرضية المسجد الواسعة.

بعد أن أخذ الحاكم بأمر الله، كما هو ممهور اسمه بهذا اللقب في الكتب الرسمية والخطابات والقرارات والأوامر السلطانية، ركعة، ركعتين لوجه الله تعالى، تلفت يمينا ويسارا في القاعة الفسيحة فلم يشاهد أحدا. كانت خالية إلا من ثلاثة شيوخٍ مسنين، غارقين في الأدعية والتسابيح بحمد الخالق العظيم، في إحدى الزوايا غير البعيدة، بعد الفراغ من صلاتهم نُودي عليهم بأن يحثوا خطاهم لمقابلة الحاكم، فهرعوا مسرعين، ووهب كل منهم ملايين من الدنانير، كمكرمة كبرى من خيراته وأُعطياته السخية، سرعان ما شاع خبرها بدقائق معدودة بين الناس، عند انبلاج الشمس وشروقها.

**في اليوم التالي وبساعات سابقة لطلوع الفجر اكتظ الجامع الكبير مزدحما بملايين المصلّين من سكان المدينة....**

## لعبة قناع الأسد

**كلٌ يركضُ خلف الآخر، أنا وراء الكلب، والكلبُ وراء القطِّ، والقطُّ وراء الفأر.**

**كيف كان ذلك؟ ولماذا؟**

**نعمْ. حدث هذا ذات يوم، حين لبستُ وجه الأسد، في قناع مرعب، من ورق ملوّن، مكشرا عن أنيابي، زأرتُ، زأرتُ بأعلى صوتي، وصحتُ بوجه كلبي الصغير، مداعبا إياه: أغرب عن وجهي يا هذا ..؟ ..أنا ملكُ الغابة، وسيدُ الحيوانات جميعها، ألا تخشاني حقّ؟ سأفترسك حيّا، إن لم تهربْ مني فورا؟**

**حدّق في القناع قليلا ثم فرّ الكلبُ خوفا مني، ركضَ سريعا، ظنّا منه أني فعلا أسدٌ حقيقيٌ، بشكلي وقناعي المُخيف.**

**أخذَ يعدو بخفة أمامي هاربا يعوي، حتى لاحَ في الأفق القريب، قط أبيض يمشي، ويقفزُ هنا وهناك على جانب الطريق، حَسب القطُّ أن الكلبَ الهاربَ مني متجهٌ نحوه يُلاحقهُ، يُريدُ أن يأكله، فراح يجري هو الآخرُ مَرعوبا، لا يكفُ عن الركض، أمتارا وأمتارا، يموء بصوته المرتفع الذي ملأ المكانَ ضجيجا. ما أن سَمعه فأرٌ قريبٌ في الجوار حتى وَثبَ مذعورا، وأخذَ يركضُ أيضا، مُنطلقا الى الأمام، مُعتقدا أن القطّ المسرعَ صَوبهُ يُطارده. وبين خطوة وأخرى سينهشه، وينال منه على عجل، ولن ينجو منه أبدا، فيما لو تباطأ قليلا، أو تكاسل لحظة عن الهزيمة والهروب.**

كان المشهدُ مثيراً جداً، كلٌ يعدو خوفا من الآخر. الفأرُ أمام القطِّ، والقطُّ أمام الكلب، والكلبُ أمامي.

لا أحد يعلمُ أدنى شيء عن سرّ اللعبة سواي، توقفتُ أخيرا لألتقط أنفاسي، رفعتُ قناع الأسد، وكشفتُ عن وجهي الحقيقي، مبتسما وضاحكا، ملوّحا لكلبي المفزوع الذي التفت مستديرا نحوي، شيئا فشيئا، أقترب مني حتى تعرّفني، وعاد إلى جواري، يهزُّ لي ذيلَه القصير، فرحا، سعيدا، آمنا بقربي.

فيما فرّ القطُ الأبيض يمينا، وهرب الفأرُ يسار، كلٌ منهما إلى جهة مختلفة مجهولة، من دون أن يعرف منهم غيري، ما الذي كان وراء ما حدث أصلا؟

نعم إنها لعبةُ قناع الأسد، ما أحلاها من تسلية، كانت مبهجة وممتعة للغاية حقّا.

## وصايا مواطن عادي جدا

تريث قليلا، قدر الإمكان، وحاول ألا تبتسم للكاميرا كل الابتسام عند صورة التخرج في الجامعة، فمن المحتمل جدا أن تنضم مهرولا أو عاجلا إلى صفوف جيش البطالة وطوابير العاطلين.

إن رزقت بمولود بكر أو ثان أو ثالث على التوالي، لا تفرح بوسع الدنيا، وتطلق الزغاريد والعيارات النارية، وتنحر الذبائح، كما يفعل القرويون، ابتهاجا بالقادمين الجدد، لأنه قد تخشى عليهم يوما ما، من أن يسقطوا دفعة واحدة، صرعى مجهولين في معارك منسية، أو ضحايا نزاعات أهلية مسلحة، أو ينتهوا سرّا كالمغيبين في الإبادات الجماعية.

ولن يختلف الأمر جدا، عند نسوة المدينة المتشحات بالسواد على الدوام، مادامت التداعيات واحدة، سيلتحق العديد منهن، مسرعات، إلى حشد الأرامل والمطلقات، نتيجة الحروب والمجاعات المستدامة.

# وجع التاريخ

لا تأمل من فأل حسن يخطر عن كثب أمامك، أو يبدو لك في الأفق القريب والبعيد، ولا ترج خيّرا برؤيا منامات مبشرة ولو صدق المفسّرون، وما تعدك به خيالات اليقظة وأحلامها، طالما أنت عالق في محيط يتنامى بقوة كل يوم، على تداعي الأفكار الحرة وسقوط الناس والحقائق.

وماذا بعد أن تعرف أكثر وأكثر عما يجري، ويحدث أولا بأول، وأنت مستلب حتى النهاية. ما جدوى أن تدلي برأيك الحر من دون حوار، ولك صوتك المستقل مع وقف التنفيذ. ما معنى أن تدرك الحقيقة الوحيدة، كما هو الموت في البلاد المضاعة، حين تكشف عن حكمة التاريخ وهي تبرهن في كل انعطافة جديدة، خطيرة، من أنك كلما تتسع علما وتتعمق وعيّا، تزدد جراحاتك المزمنة وآلامك الموجعة ضراوة.

## كل شيء معد

من العبث أن تنهمك في صناعة نفسك، وخيارك لم يعد لأنى شئت، طالما كل شيء معد سلفا. كل شيء محكم ومرتب حسب الطلب، كل شيء منظم بدقة بالغة، كاصطفاف طلقات البنادق في الزنار في ساحة الإعدام قبل الرمي، وانتظام نياشين الفخر وأوسمة الشرف اللامعة المدلاة على صدر بطل الأمة في زمن الجوع والاستبداد، كتراص البسطاء في الطرقات وتزاحم المتدافعين على ملامسة أذيال صاحب الجاه تبركا أو طلبا للشفاعة في اليوم الآخر، والمستقبلين لموكب المسؤول وهو يلوح بيده الطويلة، العادل في توزيع الابتسامات الزائفة للجمهور في عصر الديمقراطية السعيد.

حذارِ أن تهمس أو تخبر أحدهم بأن شيئا ينمو هنا في الخفاء، أو هناك في الجوار، يبشر بخير ما، مشاعا كالهواء، حتى ولو أزهرت شجيرة صبّار في دارك، لأن ما يعم بالنفع

للجميع، لا يذهب للجميع، فهو غالبا ما يتعرض للسطو والاستحواذ باسم الشرعية أو الثورة. ويمكث بنهاية المطاف في جيوب المفسدين والمتسلطين زمنا بعد آخر.

## وقائع وكلمات

لا تحفل كثيرا بكلمات أو عبارات مثل، بشرى سارة، انتصار وفوز ساحق، موارد إضافية جديدة للثروات العامة. أو تراهن على أخبار عاجلة، كالعثور على حقل غاز كبير، واكتشاف بئر نفطي عملاق .. ألخ.

مهما يتردد هنا وهناك، حتى وإن كان ذلك وسواه وقائع غير قابلة للشكوك، فإنه لم يتغير من المشهد شيء يذكر، إذ يبقى الألم والأمل يتجاذبان في ذاتك المعذبة .. على الرغم من انهما نظيران لا يختلفان، يتشابهان في الحروف عدّا ولفظا، لكن كم هو بعيد وشاسع الفرق بين الاثنين، عندما يتعلق الأمر بالحقيقة، وتعيش كليهما في التفاصيل.

لا تغادر حدود لحظتك، وفز بالأماني الصغيرة، ودع الكبيرة والعظيمة منها للذين يقولون كل يو، لنبدأ من الآن نحو غد أفضل، ولا يأتي ذلك الغد ..

لا تضع حجر أساس لبيتك الجديد، فقد تواجه الهجرة والضياع خارج الحدود، أو تكون بين ليلة وضحاها غريبا في بلادك، لكنك والحق يقال، ستصبح، ومن دون تعقيد يذكر، مواطنا شرعيّا من الدرجة الأولى، حاصلا على الشهادة الثبوتية للسكنى في أكبر مخيم للاجئين من صنع الوطن.

كل شيء يطاله التغيير، يغدو صالحا للانقلاب، رأسا على عقب، من دون استثناء، حتى البديهيات والثوابت، فاذا كان الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين، فقد ثَبُت بالدليل القاطع والبرهان الساطع، أن أسهل الطرق وأسرعها على الإطلاق، هو الانحراف والزوغان.

# المجد كله

**فالمجد للمتسلقين في الأعالي، حين يكون سباق القفز بالزانة أو اللعب على العصا الطويلة شريعة كبار المتنافسين، المحصّنين بأطواق النجاة وشبكات الإنقاذ الآمنة.**

**المجد، كل المجد، للأيادي التي لم تعد قصيرة، الناصعة البياض من فرط غسيل الأموال. نعم لماذا لا تهتف علنا بذلك، فلولا السرّاق ما كان للحراس المساكين من عمل يقيهم شرّ الجوع ويكفل لهم العيش الكريم. ولولا اللصوص لما عاش الفقراء والعمال المعدمون والحدّادون من صنّاع خزائن النقود الحصينة بالأقفال المحكمة .. تلك هي الحكمة الجديدة غير القابلة للنقاش، التي عليك اليقين بها وتصديقها، بأي شكل من الأشكال.**

**إن كنت تدرك أو لا تدرك قواعد اللعبة مبكرا، فالأفضل أن تحيا مغمض العينين لا ترى شيئا لاحقا، خير من أن تكون مبصرا تعيسا في البلاد الشقية مثل طائر قلق، جفول، يفتش عن العش الوثير في الغابة الخريفية.**

# محاولة تدوين فاشلة

## جمال كريم

كما في مجموعتيه القصصيتين، خطاب عاثر، و10 كم شرقاً، وقصص أخرى، ينتقي الراحل سهيل ياسين موضوعاته وومضاته السردية في مجموعته "محاولة تدوين فاشلة" من سيرة الحياة، حياته هو، وسيرة المدينة، مدينته التي عاشها وألف حيوات كائناتها، وكل أمكنة، المسرات والأوجاع، التي مشت عليها الأيام والسنون، والمحن والأحداث. يجزئ ذاته ككيان إنساني واجب الوجود من خلال أربع ومضات سردية تندرج كل واحدة منها تحت كل حرف من مبنى مسماه، فهو يقدم خلاصة سيرته/ س: بيانات أولية: " إني من مواليد برج مجهول، لا أعرف على وجه الدقة والتحديد، أي لحظة بكيت أو أطلقت صرختي الأولى في وجه العالم، هابطاً إلى هاوية الحياة، مبتلعاً الطعم لأعي الفجيعة لاحقاً". هو إذن من المواليد المجهولة التي ستملأ مصائرها الفجائع والأهوال والنكبات، والجوع والحروب، والنهايات الفاجعة، ويمضي ياسين مع سيرة حياته، وسيرة حيوات كل شخوص قصصه القصيرة.

ويستذكر في "هائية المعاني المضادة" وهي السردية الثانية، جزءاً من ذاكرة المدينة بغداد، مدينة صباه سنواتئذ: "في سنة ميلادي دخل الباص الأحمر الانكليزي ذو الطابقين شوارع بغداد، لكني لم أستقل تلك الحافلات، ولم أقتعد كراسيها الجلدية الوثيرة ولا حتى الخشبية القلقة". لكنه يرى في سردية "يائية الحكمة التي لا تنفع" أن لعبة الأسماء التي تنجبر عليها المخلوقات منذ صرخة ولادتها الأولى بوجه هذا العالم، والتي أصبحت إحدى واجبات وجوده، هي وما تحمل من دلالات وأمانٍ يتأمل الأهل سعاداتها ليست سوى مرتقبات مؤجلة، وعسيرة التحقق:" فليس كل ما نأمله ونتوقعه من وراء لعبة الأسماء ومحمولاتها سهل المنال، وممكن التحقق، وإذا كان الأمر كذلك، فتلك معادلة غير قابلة للتصديق، أو حكمة بالية لا تقبل أقل الاحتمالات، فات الأهل المبتهجون فرحا بمقدمي أن يدركوها مسبقا،

ويعرفوا تمام اليقين أو على نحو ما، إن هكذا أشياء وأمانٍ ليست يسيرة على الفتى البكر، ولن تنفعه في القادم من أيامه أو في عصره الحالي السعيد". لكنه في سردية "لامية المرشد الضال "وهي خاتمة المبنى واليقين، يقين ورطة الوجود، والضياع والتيه، واللامعنى: "أيقنت أن سهيلاً ضوء ساطع، يستهدي به الناس إلى وجهاتهم، وتسترشد به القوافل السيّارة والتائهون في المد الصحراوي ليلاً، لكني لا أصدق أو أذكر يوماً بالمرة، أن اهتدى أحد بحكمتي، أو استرشد بي وتبع خطاي، إلا الضالعون في ورطة الوجود والضائعون من أمثالي في تيه أضواء المدينة".

عموماً تبقى مجموعة "محاولة تدوين فاشلة" القصصية التي أودع مخطوطتها الراحل سهيل ياسين في أمانة خزانتي قبل أن يقطع صلته بالحياة والوجود الموت اللئيم، جزءاً من مشروع تجربته السردية التي قطع شريانها الموت، وأعني غياب المؤلف الأبدي. لتبقى الحكاية التي لا تنتهي، الحكاية التي تركها كما هي من دون معاينة صياغتها الأخيرة، ومن دون أن يراها بين عتبتي غلافها. وتركنا نحن المتلقين بين فضاءات متون سردياته، وشخصياته، بين صراعاتها، ومآلاتها، وأزماتها المحتدمة التي غالباً ما تكون مسكونة بالوحدة والتمزق والغربة، وعذابات الوجود. وكل المسكونات إنما مسكونة بإحساس السارد/الحاكي، وهو نفسه الراحل الحاضر بحياة نصوصه وكل تلك الذاكرة التي أوقفها الموت. ولهذا غالباً ما سنجد ياسين وراء كل وحدة أو مقطع سردي متفاعم الأحاسيس تجاه ذاته، وتجاه عالمه الموضوعي غير المتوازن. ومن هذين الاتجاهين تكتسب محمولات أغلب نصوصه الصراع والتضاد بين الذات والآخر، ومن هنا أيضاً تنزاح لعبة الأسماء والثنائيات، لتحل المفارقة الوجودية التي يشتغل عليها ياسين في معظم سردياته، وأعني هنا مفارقة الوجود والعدم، أو الحياة والموت.